عُلُوُّ الهِمَّة في الإنصاف

✍ وهنا في هذا الفصل بالذات تُسكَب العبرات، ورحم الله تعالى إمام دار الهجرة مالك بن أنس حيث قال: «ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف»(١) فكيف لو أدرك زماننا هذا؟!

□ والإنصاف دليل على كمال الإيمان وصحّة الإسلام، وإنصاف العبد من نفسه دليل على التجرُّدِ من الأنانية.

والإنصاف هو العدل في المعاملة، وأنْ تُعْطِيَ لغيرك من نفسك النِّصْفَ أَيْ تُعْطِيَه من الحق كالذي تستحقُّ لنفسك. أن تُعطيَ غيرك من الحقِّ مِثلَ الذي تحبُّ أن تأخذه منه لو كنتَ مكانه، ويكونُ ذلك بالأقوال والأفعال، في الرضا والغضب، مَعَ مَنْ تُحِبُّ ومَع مَن تكره.

بَيْنَ الإنْصَافِ وَالْعَدْلِ:

□ قال المُناويُّ: «الإنصَافُ والعَدْلُ توءمانِ نتيجتُهُما عُلُوُّ الهمَّةِ وبراءَةُ الذِّمَّةِ باكتسابِ الفضائلِ وتجنُّبِ الرَّذائِلِ»(٢).

أنواع الإنصاف:

للإنصاف أنواع عديدة منها:

أولاً: إنصاف الله عَزَّ وَجَلَّ:

نعم إنصافُ المرء خَالقه عَزَّ وَجَلَّ حيثُ لا يُتصَوَّرُ أن يُنصِفَ المخلوقين ثم

---

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٣٢).

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي (ص٦٤).

لا يُنصِفُ الخالقَ عَزَّ وَجَلَّ.

□ قال ابن القيِّم: «طُوبى لمن أنصَفَ ربَّهُ فأقرَّ له بالجهْلِ في عِلمِهِ، والآفاتِ في عملِهِ، والعُيوبِ في نفسهِ، والتَّفْريطِ في حقِّه، والظُّلمِ في مُعاملتِه، فإنْ آخذهُ بذنُوبهِ رأى عدله، وإن لم يؤاخذهُ بها رأى فضلَهُ، وإنْ عمل حسنةً رآها من منَّته وصدقته عليه، فإنْ قبلها فمنَّةٌ وصدقةٌ ثانيةٌ، وإنْ ردَّها فلكونِ مثلها لا يصلحُ أن يُواجَه به، وإنْ عمل سيِّئةً رآها من تخَلِّيه عنهُ وخذلانه له، وإمساكِ عصمتِه عنه، وذلك من عَدْلِه فيه، فيرى في ذلك فقرهُ إلى ربِّه، وظلمهُ في نفسِهِ، فَإنْ غفرها له فَبِمَحْضِ إحسانِهِ وجُودِهِ وكرمِهِ، ونُكْتَهُ المسألة وسرُّها أنَّه لا يرى ربَّهُ إلَّا مُحسنًا، ولا يرى نفسه إلَّا مُسِيئًا أو مُفرِّطًا أو مُقصِّرًا، فيرى كل ما يسرُّهُ من فضل ربِّه عليه، وإحسانه إليه، وكُلَّ ما يسوؤُهُ من ذنوبه وعدلِ الله فيه»[1].

□ ومن الإنصاف في حقِّ المولى عَزَّ وَجَلَّ الإنصافُ في مُعاملتِهِ، وفي هذا يقولُ ابنُ القيِّم أيضًا: «الإنصاف في معاملةِ الله أن يُعْطي العبوديَّة حقَّها، وأَنْ لا يُنازعَ ربَّهُ صفاتِ إلهيَّته، وأَنْ لا يشكُرَ على نعمه سواهُ، ولا يستعين بها على معاصيه، ولا يحمد غيره، ولا يعبد سواهُ»[2].

ثانيًا: إنصاف النبي ﷺ:

وذلك بالقيام بحقوق النبي ﷺ من الإيمان به ومحبته، وتقديمها على محبة الخلق كلهم، وطاعته وتوقيره وتجيله، وتقديم أمره وقوله على أمر

---

(١) «الفوائد» (ص٤٩).

(٢) «الإنصاف» لساعد عمر غازي (ص٢٤)- مكتبة الصحابة- طنطا.

غيره وقوله.

ومن الظلم العظيم: أن يخل العبد بشيء من حقوق النبي ﷺ الذي هو أولى المؤمنين من أنفسهم، وأرحم بهم وأرأف بهم من كل أحد من الخلق، وهو الذي لم يصل إلى أحد خير إلَّا على يديه»[1].

ثالثًا: إنصافُ المرءِ لنفسَه من نفسِه:

إنَّ أُولَى درجات الإنصافِ، أن يكونَ الإنسانُ منصِفًا نفسه لأنَّ من لم يفعل ذلك لا يستطيعُ إنصافَ غيره انطلاقًا من القاعدةِ المعروفةِ [فاقدُ الشيءِ لا يعطيهِ] يقولُ ابن القيم -رحمه الله تعالى- ويدخلُ في الإنصاف: إنصافُ المرءِ نفسهُ من نفسِهِ، بألَّا يدعي لها ما ليس لها، ولا يُخبِّثَها بتدنيسه لها، وتصغيره إيَّاها وتحقيرها بمعاصي الله عَزَّوَجَلَّ، بل يُنمِّيها ويُكبِّرُها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحُبِّه وخوفه ورجائِه، والتَّوكُّل عليه، والإنابة إليه، وإيثارِ مرضاته على مراضي الخلق محابِّهم.. إنَّ إنصاف المرء نفسهُ من نفسه يوجبُ عليه معرفةَ ربِّه وحقِّه عليه، ومعرفة نفسِهِ، وما خُلقَتْ له، وألَّا يُزاحِمَ بها مالكها وفاطرها يدَّعي لها الملكةَ والاستحقاق، ويُزاحمَ مُراد سيِّده، ويدفعه بمُراده هو، أو يُقدِّمَ مرادَهُ (كالشَّهَواتِ مثلًا) ويؤثرهُ على مُرادِ مولاهُ، أو يقسمَ إرادتهُ بين مُرادِ سيِّدِهِ ومُرادِهِ هو، وهذه قسمَةٌ ضيزَى مثلُ قسمةِ الذين قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص٤١- ٤٢).

فلينظر العبدُ ألَّا يكون من أهلِ هذه القسمة بين نفسه وشُركائه (من ناحية)، وبين الله ﷻ (من ناحيةٍ أُخرى). وإلَّا يفعل لُبِّسَ عليه وهو لا يشعرُ، وكيف يُنْصِفُ غيره من لم ينصفْ نفسه؟ فظلمها أقبح الظلم، وسعى في ضَررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذَّاتها من حيثُ ظنَّ أنَّه يعطيها إيَّاها فأتبعها كلَّ التَّعبِ، وأشْقاها كُلَّ الشَّقَاءِ من حيث ظنَّ أنَّه يُريحها ويسعدها، وجدَّ كُلَّ الجِدِّ في حرمانها حظَّهَا من الله ﷻ وهُو يَظُنُّ أنَّهُ يُنِيلُهَا حظُوظها، كيف يُرْجَى الإنصافُ (للغير) ممَّنْ هذا إنصافُهُ لنفسه؟ إذا كان هذا فعل العبدِ بنفسه، فماذا تراهُ بالأجانبِ يفعلُ؟[1].

رابعًا: إنْصَافُ العِبَاد:

يُقصدُ بإنصافِ العباد أن يقُومَ المسلمُ بإنصافِ الغير من نفسه أو ممَّنْ يُحبُّ، حتَّى لو كان هذا الغيرُ مخالفًا له في الرَّأْيِ، أو في الدِّين، أو في المذهبِ، أو غير ذلك مما يقْتَضِي التَّحَامُلَ، أو يكونُ مظنَّة للجورِ، ومن إنصافِ النَّاسِ -كما يقول ابن القيِّم: «أن تُؤدِّي حقوقهم وألَّا تطالبهم بما ليس لك، وألَّا تحمِّلهم فوق وسعهم، وأنْ تُعامِلَهُمْ بما تحبُّ أن يُعاملُوكَ به، وأنْ تُعفيهم ممَّا تُحبُّ أن يُفوك منه، وأنْ تحكمَ لهم أو عليهم بما تحكمُ به لنفسكَ أو عليها[2]، والإنصافِ العبادِ صُورٌ كثيرةٌ ونماذج مُتعدِّدةٌ جاء بها القُرآنُ الكريمِ والسُّنَّةُ المطَهَّرةُ، ودلَّتْ عليها آثارُ سلفنا الصَّالحِ، وهذا ما سوف نتناولُهُ في الفقرةِ التالية».

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢/ ٤٠٨- ٤١٠).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤٠٧).

القرآن يُقدِّم المثل الفذّ العالي في الإنصاف:

مع أن اليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا إلَّا أن هذه العداوة لم تمنع القرآن الكريم من إنصافهم إنْ هُمْ أحسنُوا أو أحسنَ بعضهم، ومن مظاهر هذا الإنصاف ثناؤُهُ ﷻ على بني إسرائيل ثناءً عظيمًا، يبلغُ بهم ذُروةً شاهقةً من الرِّضا والتَّقدير، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف].

* وقولُه عزَّ من قائلٍ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

ثُمَّ في معظم الأحيان تبلُغُ حملتُهُ عليهم حدًّا رهيبًا من التَّقريع والتَّنْديد، والذَّمِّ والتَّوْبيخِ والسَّببُ في هذا الموقف القُرآنيِّ هو الإنصافُ التَّامُّ لهم، وإعطاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، وكُلِّ ذي باطلٍ ما يستحقُّه، فهو يمدحهم إن أحسنُوا وأطاعُوا، وهو يذُمُّهم إن عاندوا وشاقُّوا، وقد كان من تمام إنصافه ﷻ معهم أنَّهُ دائمًا يستثني منهم القلَّةَ الصَّالحةَ -على نُدرتها- كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

✍ إنه الإسلام.. الإسلام وحده في تاريخ البشرية كله الذي يُصنف خصومه أحسن الإنصاف وأعلاه.. إنها القمة السامقة التي لا يُقيمها ابتداءً إلَّا الإسلام، ولا يرقاها إلَّا المسلمون في كل التاريخ إنها الدروس الهائلة في التربية على الأُفق الأعلى لا يُقدمه إلَّا الإسلام، ولا يقدر عليه إلَّا المسلمون.

لقد بقيت دروس القرآن في إنصاف الكافرين المخالفين، وإنصاف

الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين لأهل الذمة ودروسًا ربَّانية خالدة وعاها المسلمون وحفظوها، لتتعلمها البشرية منهم يومَ تفيء إلى رشدها وتحب أن تعرف الطريق إلى ما فيه خيرها وسعادتها.

الإنصاف في القرآن الكريم[1]:

✍ وردت آيات عطرة كثيرة تدل على الإنصاف، منها:

* قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ [المائدة].

□ قال ابن كثير في «تفسيره»: «قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾، أي: كونوا قوامين بالحق لله ﷻ لا لأجل الناس والسمعة. وكونوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل لا بالجور. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل في كل، صديقًا كان أو عدوًا ولهذا قال: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه»[2] اهـ.

□ وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»: ﴿ٱعْدِلُواْ﴾ في الولي والعدو ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: إلى التقوى. أقرب إلى أن تكونوا متقين

---

(١) انظر: «الإنصاف» للشيخ ساعد غازي (ص١٠- ٢٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠).

وقيل: هو أقرب إلى اتقاء النار»[١] اهـ.

□ وقال ابن تيمية في «المظالم المشتركة»: «العدل واجب لكل أحد على كل أحد في جميع الأحوال، والظلم لا يباح منه شيء بحال حتى أن الله تعالى قد أوجب على المؤمنين أن يعدلوا على الكفار في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية. والمؤمنون كانوا يعادون الكفار بأمر الله. فقال تعالى: لا يحملكم بغضكم الكفار على أن لا تعدلوا عليهم، بل اعدلوا عليهم؛ فإنه أقرب للتقوى»[٢] اهـ.

* قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء].

□ قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في «تيسير الكريم الرحمن»[٣]: «يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ والقوّام صيغة مبالغة: أي كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله: أن لا يستعان بنعمه على معصيته بل تصرف في طاعته) والقسط في حقوق الآدميين: أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة والديون وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به الأخلاق

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).
(٢) «المظالم المشتركة» لابن تيمية (ص٢٦- ٢٧).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (٢/ ٩٠).

والمكافأة وغير ذلك».

ومن أعظم أنواع القسط. القسط في المقالات والقائلين فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان حتى على الأحباب بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

□ قال ابن كثير في «تفسيره»: «أي اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه»[1].

□ وقال ابن جرير في «تفسيره»: «فإن قيل قائل: وكيف يقوم بالشهادة على نفسه الشاهد بالقسط؟ وهل يشهد الشاهد على نفسه؟ قيل: نعم. ولذلك أن يكون عليه حق لغيره فيقر له به، فذلك قيام منه له بشهادة على نفسه»[2].

□ قال ابن ناصر السعدي: «والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدلها على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام وأن يجعله نصب عينيه ومحل إرادته وأن يزيل على نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إراداة القسط أو العمل به وأعظم عائق لذلك إتباع الهوى»[3].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٦٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٠٦).

(٣) «الظلال» (٦/ ٧٧٦).

□ والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها.. حب الذات هوى. وحب الأهل والأقربين هوى. والعطف على الفقير -في موطن الشهادة والحكم- هوى. وجاملة الغني هوى ومضارته هوى. والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن -في موضع الشهادة والحكم- هوى. وكرامة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين -في موطن الشهادة والحكم- هوى. وأهواء شتى الصنوف والألوان»[1].

* قوله عز من قائل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

□ قال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] الآية، وكذا التي تشبهها في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [٥٨] يأمر الله تعالى بالعدل في الفعال والمقال على التقريب والبعيد والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال» اهـ.

* قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

□ قال ابن جرير في «تفسيره»: «يقول تعالى ذكره: قالت صاحبه سبأ للملأ من قومها إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يقول: خربوها

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٠).

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ وذلك باستعبادهم الأحرار واسترقاقهم إياهم وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما قالت صاحبة سبأ: تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة»[1] اهـ.

□ وقال القرطبي في «تفسيره»[2]: «﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور. فصدق الله قولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

□ قال ابن الأنباري: «قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ هذا وقف تام. فقال الله ﷻ تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾»انتهى الغرض منه.

فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ من تصديق الله تعالى لقومه ملكة سبأ وهي كافرة. وهذا غاية العدل والإنصاف.

□ ولذا قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان»: «ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تستجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلامًا حقًّا صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعًا من تصديقها في الحق الذي قالته وذلك في قولها فيما ذكره الله عنها: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ قد قال تعالى مصدقًا لها في قولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾»[3] اهـ.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٩٦- ٩٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/ ٤٩١١).

(٣) «أضواء البيان» (١/ ٤).

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

«ففي هذا إرشاد إلى عدم بخس الناس حقوقهم وإنكار فضلهم والتحامل عليهم والطعن بهم والسخرية منهم. والله أعلم»[١].

* وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

□ قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة»[٢].

* قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

□ قال محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ قال: «هي مُسْجَلة للبر والفاجر»[٣].

□ قال أبو عبيد: «مسجلة: مرسلة».

□ قال فضل الله الجيلاني في «فضل الله الصمد»، فقوله: «مسجلة»: أي مطلقة إلى كل أحد برًا كان أو فاجرًا» اهـ.

ففي هذا إرشاد للإحسان إلى البر والفاجر وما ذلك إلَّا عين الإنصاف[٤].

* وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) «الإنصاف» (ص٢٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٨٢).
(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٠) بسند حسن.
(٤) «فضل الله الصمد» لفضل الله الجيلاني (١/ ٢٢٥).

• وقد قال النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾ قال: «عدلًا»(١).

وفي التنازيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، أي: أعدلهم وخيرهم.

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

أحاديث نبوية كريمة في الإنصاف:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفرك**(٢) **مؤمن مؤمنةً، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**». أو قال: «**غيره**»(٣).

وفي رواية: «**لا يفركن مؤمن مؤمنه**».

□ قال العلامة ابن ناصر السعدي في فوائد هذا الحديث فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أن لابد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك، فقارن بين هذا، وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن والمقاصد الخاصة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المساوئ وملاحظة المحاسن تدوم الصحبة والاتصال وتتم

---

(١) «الإنصاف» (ص٢٠).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٩٦١) عن أبي سعيد مرفوعًا وقال: حسن صحيح، وروى البخاري هذا الحديث (٤٤٨٧) مطولاً وكذا الترمذي (٢٩٦٢)، وفي آخر حديثهما: «والوسط العدل»- انظر «فتح الباري» (٨/ ١٧٢).

(٣) الفرْك: البُغْض فِركه يفرَكه إذا أبغضه.

الراحة وتحصل لك»(١).

ثم قال: «ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ، بل عكس القضية، فلحظ المساوئ، وعمي عن المحاسن، فلابد أن يقلق، ولابدَّ أن يتكدَّر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، ويتقطع كثير من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها»(٢)اهـ.

• عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصفحة فيها طعام، فضربت التي كان النبي فيها بيتها يد الخادم فسقطت الصفحة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصفحة ويقول: «**غارت أمكم**»، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كُسرت فيه»(٣).

ففي قوله: «فدفع الصفحة الصحيحة إلى التي كُسرَتْ صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه»، إقامة للعدل لأنه رد الصفحة إلى التي نفعها مختص بها لكون التي كسرت الصحفة أبطلت اختصاص الأخرى بتلك الصحفة كما لا يخفى على ذي فهم»(٤).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان لرجل على رسول الله ﷺ حق فأغلظ

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم (١٤٦٩).

(٢) «الوسائل المفيدة» (ص٢٦).

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٥)، وأحمد (٣/ ١٠٥).

(٤) «ثلاثيات مسند الإمام أحمد» (١/ ٧٠٩) للسفاريني.

له. فهم به أصحاب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**إن لصاحب الحق مقالًا**»، فقال لهم: «**اشتروا له سنا**[١] **فأعطوه إياه**»، فقالوا: إنا لا نجد إلَّا سنا هو خير من سنه. قال: «**فاشتروا فأعطوه إياه فإن من خيركم -أو خيركم- أحسنكم قضاء**»[٢].

• وفي الحديث: حسن خلق النبي ﷺ وعظم حلمه وتواضعه وإنصافه، وإن من عليه دين لا ينبغي له مجافاة صاحب الحق»[٣].

✍ أليس في هذا تعليم لنا: كيف ننصف الناس من أنفسنا عند طلب الحقوق وعند قضائها. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

• وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينًا كان له عليه فاشتد عليه حتى قال له: أحرج عليك إلَّا قضيتني فانتهره[٤] أصحابه وقالوا: ويحك أتدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: «**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**»، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: «**إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك**»، فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله قال: فأقرضته فقضى الأعرابي وأطعمه فقال: أوفيت أوفى الله لك، فقال: «**أولئك خيار الناس أنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعْتَعٌ**»[٥].

---

(١) أي: ذا سن من الإبل معين العمر.
(٢) رواه البخاري (٢٣٩٠)، ومسلم (١٦٠١) واللفظ له.
(٣) «فتح الباري» (٥/ ٥٧).
(٤) أي: زجره.
(٥) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصحح إسناده البوصيري في «مصباح =

□ قال السندي في «حاشية على سنن ابن ماجه» (٢/ ٧٩): «قوله: «**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**»: حثهم على القيام مع صاحب الحق أي: ينبغي لكم أن تكونوا مع صاحب الحق إلى أن يصل إليه حقه».

وقوله: «**غير متعتع**»: بفتح التاء الثانية، أي: من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه وغير منصوب لأنه حال الضعيف»اهـ.

فكان ذلك درسًا هائلًا وتوجيهًا عمليًا للإنصاف من النبي ﷺ أدعو الله عز وجل أن يرزقنا العمل به.

• وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا. إن كان ظالمًا فلينهه. فإنه له نصر. وإن كان مظلومًا فلينصره**»[(١)].

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تأخذ فوق يديه**»[(٢)].

ففي هذا الحديث إرشاد: أنه من لم يك خارجًا عن حقوق الإيمان وجب أن يعامل بموجب ذلك فيحمد على حسناته، ويوالي عليها وينهي عن سيئاته ويجانب عليها بحسب الإمكان. والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعًا لأمر الله ورسوله. فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله

الزجاجة» (٢/ ٢٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٥٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٤).

ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله. ومن كان فيه ما يوالي عليه من حسنات وما يعادي عليه من سيئات عوامل بموجب ذلك، كفساق أهل الملة، إذ هم مستحقون للثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض، بحسب ما فيهم من البر والفجور فإن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة] وهذا مذهب أهل السنة والجماعة»[١].

□ وعن قتيلة -امرأة من جهينة-: «أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون[٢] وإنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ويقولون ما شاء الله، ثم شئت»[٣].

• وجاء بلفظ آخر مطولًا: «أتى حبر من الأحبار رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! نعم القوم أنتم لولا تشركون؟ قال: «**سبحان الله وما ذاك؟**» قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة، قال: فأمهل رسول الله ﷺ شيئا ثم قال: «**إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة**»، قال: يا محمد! نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندًا! قال: سبحان الله! وما ذاك؟ قال: تقولون ما شاء الله وشئت. قالت: فأمهل رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال: إنه

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٩٤- ٩٥).

(٢) أي: تتخذون أندادًا.

(٣) صحيح: **أخرجه النسائي في** «سننه» (٧/ ٦)، وفي «اليوم والليلة» (٩٨٦)، (٩٨٧)، والطبراني. وهذا إسناد صحيح كما قال الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٣٨٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١٦٦).

قد قال فمن قال: «**ما شاء الله فليفصل بينهما: ثم شئت**»[(١)].

يؤخذ من هذا الحديث: «قبول الحق ممن جاء به، وإن كان عدوًا مخالفًا في الدين»[(٢)]. أليس هذا من الإنصاف؟!

• عن الشريد بن سويد ﵁ قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئًا؟**» قلت: نعم. قال: «**هيه**»[(٣)] فأنشدته بيتًا فقال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتًا فقال: «**هيه**» حتى أنشدته مئة بيت.

وزاد في رواية: «إن كاد ليسلم». وفي آخرى: «فلقد كاد ليسلم في شعره»[(٤)].

□ وأمية بن أبي الصلت الثقفي قال عنه الحافظ في «الفتح»: «كان ممن طلب الدين ونظر في الكتب ويقال إنه ممن دخل في النصرانية وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة»[(٥)].

□ وقال ابن قتيبة في «المعارف» (ص٦٠): «وكان يخبر بأن نبيًّا يبعث قد أظل زمانه فلما سمع بخروج النبي ﷺ وقصته كفر حسدًا له».

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٧١- ٣٧٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٣٨)، (٢٣٩)، والحاكم (٤/ ٢٩٧)، والبيهقي (٣/ ٢١٦)، والطبراني في «الكبير».

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص٦٠٠).

(٣) هيه: كلمة للاستزادة من الحديث المعهود.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٥٥).

(٥) «فتح الباري» (٧/ ١٥٣).

□ وقال الحافظ: «وعاش أمية حتى أدرك وقعة بدر ورثى من قتل بها من الكفار مات أمية بعد ذلك سنة تسع، وقيل: مات سنة اثنتين. ذكره سبط ابن الجوزي واعتمد في ذلك ما نقله عن ابن هشام: أن أميه قدم من الشام على أن يأخذ ماله من الطائف ويهاجر إلى المدينة، فنزل في طريقه ببدر قيل له: أتدري من في القليب؟ قال: لا؟ قيل: فيه عتبة وشيبة وهما ابنا خالك وفلان وفلان، فشق ثيابه وجدع ناقته وبكى ورجع إلى الطائف فمات بها. قلت: ولا يلزم من قوله فمات بها أن يكون في تلك السنة»[١].

«فأمية بن أبي الصلت مات كافرًا، ومع ذلك سمع النبي ﷺ شعره وأجاز إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث فقبل ما أتى به من الحق أليس ذلك إرشاد لأمته ﷺ أن تشهد بالعدل وتتعامل بالإنصاف مع الناس مسلمهم وكافرهم؟!»[٢].

□ قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[٣].

□ قال الحافظ في «الفتح»: «قال أبو الزناد بن سراج وغيره: إنما كان من جمع الثلاث مستكملا للإيمان لأن مداره عليها؛ لأن العبد إذا اتصف

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٥٤).

(٢) «الإنصاف» (ص٣١).

(٣) موقوف صحيح: وله حكم الرفع: علّقه البخاري في «صحيحه بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٣١) وغيره بسند صحيح، وقد رُوِي مرفوعًا وأعلّه أبو زرعة، وغيره بالوقف وهو الصواب. انظر: «الفتح» (١/ ٨٢-٨٣)، و«الزهد» لوكيع (٢٤١).

بالإنصاف: لم يترك لمولاه حقًّا واجبًا عليه إلَّا أداه، ولم يترك مما نهاه عنه إلَّا اجتنبه، وهذا يجمع أركان الإيمان. وبذل السلام: يتضمن مكارم الأخلاق والتواضع وعدم الاحتقار، ويحصل به التآلف والتحابب. والإنفاق من الإقتار: يتضمن غاية الكرم لأنه إذا أنفق من الاحتياج كان مع التوسع أكثر إنفاقًا، والنفقة أعم من أن تكون على العيال واجبة ومندوبة، أو على الضيف والزائر، وكونه من الإقتار يستلزم الوثوق بالله والزهد في الدنيا وقصر الأمل وغير ذلك من مهمات الآخرة»[(١)] اهـ.

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»**[(٢)].

وفي رواية: **«لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير»**[(٣)].

□ قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»: «واعلم أن هذه الزيادة «من الخير» زيادة هامة تحدد المعنى المراد من الحديث بدقة، إذ أن كلمة «الخير» كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، وأبو عوانة في «صحيحه» (١/ ٣٣)، والنسائي (٨/ ١٢٥)، والدارمي (٢/ ٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٧)، وابن ماجه (٦٦)، والطيالسي (٢٠٠٤)، وأحمد (٣/ ١٧٦، ٢٠٦، ٢٥١، ٢٧٢، ٢٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٤)، وقال الترمذي: حديث صحيح، والزيادة لأبي عوانة والنسائي وأحمد في رواية لهم وإسناده صحيح كما في: «السلسلة الصحيحة» (٧٣).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٣٥) بإسناد صحيح.

وتخرج المنهيات؛ لأن اسم الخير لا يتناولها كما هو واضح. فمن كمال خلق المسلم أن يحب لأخيه المسلم من الخير مثلما يحب لنفسه، وكذلك أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر ولا يتم ذلك إلَّا بترك الحسد والغل والحقد والغش، وهذا وإن لم يذكره في الحديث فهو من مضمونه؛ لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاءً كما قال الكرماني ونقله الحافظ في «فتح الباري» (١/ ٥٨) وأقره»[١].

• وعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تقاضي إليك رجلان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر فسوف تدري كيف تقضي. قال علي: فما زلت قاضيًا بعد**».

وفي رواية: «**إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول**»، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء. قال: فمازلت قاضيًا، أو ما شككت في قضاء بعد»[٢].

□ يؤخذ من هذا الحديث: أن القاضي لا يقضى لأحد الخصمين حتى يسمع كلام الآخر وما هذا إلَّا عين الإنصاف. فالحكم على شخص قبل أن يُسمع من الآخر مما لا يجوز عند أحد لإمكان أن يكون معه حجة تبطل

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ١١٤).

(٢) حسن: حسن إن شاء الله تعالى للاختلاف في حنش بن المعتمر: أخرجه أبو داود (٣٥٨٢)، والنسائي في «خصائص علي» (٣٤)، والبيهقي (١٠/ ١٤٩)، وأحمد (١/ ١١١)، وابنه في «زوائد المسند» (١/ ١٤٩)، والحاكم (٤/ ٩٣) وغيرهم. والرواية الثانية لهم، ورواه الترمذي (١٣٣١) باللفظ الأول. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٣٠٠) و«الإرواء» (٢٦٠٠).

دعوى الآخر وتدحض حجته[١].

• وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: اشتكى ابنٌ لأبي طلحةَ، فخرجَ أبو طلحةَ إلى المسجد فتُوفِّيَ الغلامُ، فهيَّأَتْ أمُّ سلمةٍ الميِّتَ، وقالت لأهلها: لا يُخْبِرَنَّ أحدٌ منكم أبا طلحةَ بوفاة ابنه، فرجَعَ[٢] إلى أَهلِهِ، ومعهُ ناسٌ من أهلِ المسجد من أصحابه، قال: ما فعل الغُلامُ؟ قالتْ: خيرٌ ما كان، فقرَّبتْ إليهم عشاءَهُمْ فتعشَّوْا، وخرج القومُ، وقامتِ المرأةُ إلى ما تَقُومُ إليه المرأةُ، فلمَّا كان آخِرُ الليل قالت: يا أبا طلحةَ، ألمْ تَرَ إلى آلِ فُلانٍ، استعَارُوا عَارِيَّةً[٣] فَتَمتَّعُوا بها، فلمَّا طُلِبَتْ كأنَّهُم كرِهُوا ذاك، قال: ما أنصْفُوا قالت: فَإِنَّ ابنكَ كان عاريَّةً من الله تبارك وتعالى، وإنَّ الله قبضَهُ، فاستَرْجَعَ[٤] وحمد الله، فلمَّا أصبحَ غَدَا على رسولِ الله فلمَّا رَآهُ قال: باركَ اللهُ لكما في ليلتِكُمَا، فحملتْ بعبْدِ الله، فولدَتْهُ لَيْلًا، وكرهتْ أن تُحَنِّكَهُ حتى يُحَنِّكَهُ رسولُ الله فحملْتُهُ ومعي تَمراتُ عَجْوةٍ، فوجدْتُهُ يهنَأُ[٥] أباعِرَ لهُ أو يَسِمُهَا[٦]، قال: فقلت: يا رسول الله، إنَّ أُمَّ سُلَيْم ولدتِ الليلة فكرهتْ أنْ تُحَنِّكَهُ[٧]، حتَّى يُحَنِّكَهُ رسولُ الله فقال: أَمَعكَ شيءٌ، قلت: تَمَرَاتُ

---

(١) «الإنصاف» (ص٣٣).

(٢) أي: رجع أبو طلحة.

(٣) العاريّة: بتشديد الياء، هي: المنيحة.

(٤) الاسترجاع أن يقول المرء: «أنا لله وإنَّا إليه راجعُون».

(٥) يهنأ من هنأ البَعيرَ إذا طَلاهُ بالهناءِ وهو القَطِران.

(٦) يسِمُها، أي: يجعلُ لها وسْمًا وهو العلامَةُ.

(٧) تحنيك الصَّبِيِّ: أنْ يمضغ التَمرُ ثم يُدلكُ بِحَنَكِ الصَّبي داخل فمه.

عجْوةٍ، فأخذ بعضهُنَّ فمضغَهُنَّ، ثمّض جمع بُزاقهُ فأوْجَرَهُ [١] إيَّاهُ، فجعل يتلمَّظُ [٢] فقال: حُبُّ الأنصارِ التَّمْرُ [٣]، قال: قلتُ: يا رسول الله، سَمِّهِ قال: هُو عبد الله» [٤].

● عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ أُفرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ في سَبْعَةٍ من الأنصارِ، ورجليْنِ من قريشٍ، فلمَّا رَهقُوهُ [٥] قال: «**مَنْ يرُدُّهُمْ عنَّا وله الجنَّةُ، أو هو رفيقي في الجَنَّةِ؟**» فتقدَّمَ رجلٌ من الأنصار، فقاتل حتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أيضًا. فقال: «**مَنْ يرُدُّهُمْ عَنَّا وله الجنَّةُ، أو هو رفيقي في الجَنَّةِ؟**» فتقدَّمَ رجُلٌ من الأنصارِ، فقاتلَ حتَّى قُتِلَ. فلم يَزَلْ كذلك حتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ. فقال رسول الله ﷺ: «**ما أنصفْنَا أصحابَنا**» [٦] [٧].

---

(١) أوجره إياه، أدخله في فيه أو في وسط حلقه.

(٢) التلمظ هو أن يدير لسانه في فيه ويحركه يتتبع أثر التمر «النهاية» (٤/ ٢٧١).

(٣) يروي بضم الحاء فيكون اسما من المحبةِ وذلك علىٰ سبيل المبالغة في حب الأنصار للتمر، وبكسر الحاء يكون بمعنىٰ المحبوب، والتمر يروىٰ منصوبًا ومرفوعًا، النصب علىٰ أنه مفعول المصدر ويكو الخبر محذوفًا، والرفع علىٰ أنه خبر المبتدأ، وقد جاء في بعض الروايات: انظروا حب الأنصار التمر. انظر: «النهاية» (١/ ٣٢٧)، و«قارن باللسان» (١/ ٢٩٠).

(٤) «المسند» (٣/ ١٠٥- ١٠٦).

(٥) رهقوه أي غَشُوهُ وقربُوا مِنْهُ، قال القاضي عياض: قِيلَ لا يُستعملُ ذلك إلا في المكروه، وقيل: كل شيء دنوت منه فقد رهقته.

(٦) المعنىٰ علىٰ هذه الرواية: ما أنصفت قريش الأنصار، لكون القرشيين لم يخرُجَا للقتال، بل خرجت الأنصار واحدا تلو الآخر وقد روي أيضًا: ما أنصفَنا أصحابنا والمراد بالأصحاب حينئذ الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوه لفرارهم

(٧) «مسلم» (١٧٨٩).

• عن المعْرُورِ قال: لَقِيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبذَةِ(١) وعليه حُلَّةٌ، وعلى غُلامِهِ حُلَّةٌ، فسألتُهُ عن ذلك فقال: إنِّي سابَبْتُ(٢) رجلًا فعيَّرْتُهُ بأُمِّهِ(٣)، فقال لي النَّبيُّ ﷺ: «**يا أبا ذرٍّ، أعيَّرْتَهُ بأُمِّهِ؟ إنَّك امْرُؤٌ فيك جاهليَّةٌ(٤) إخوانكم خولكم، جعلهم اللهُ تَحْتَ أيديكم، فمن كان أخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطعمْهُ ممَّا يأكلُ، وليلْبِسْهُ ممَّا يلْبَسُ، ولا تكلِّفوهُمْ ما يغلِبُهُمْ، فإنْ كلَّفْتُموهم فأَعِينُوهمْ**»(٥).

• وفي حديث الغامدية: «فيُقبل خالد بن الوليدِ بحجر، فرمى رأسها فتنضَّح (٦) الدم على وَجْه خالدٍ، فسبَّها، فسمع نبي الله ﷺ سَبَّهُ إياها، فقال: «**مهلًا يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغُفِر له**»(٧).

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَرْسَلَ أزواجُ النبيِّ ﷺ فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ إلى رسولِ الله ﷺ فاستَأْذنتْ وهو مضْطَجعٌ معي في مرطي، فأَذن لها، فقالتْ يا رسول الله، إنَّ أزْوَاجَكَ أرسلْنَنِي إليكَ يَسْألْنَكَ العَدْلَ (٨) في

---

(١) الربذة -بفتح الراء والباء والذال- : موضع بالبادية بينه وبين المدينة ثلاث مراحل.

(٢) سابيت: أي: وقع بيني وبينه سِبَابٌ، وهو من السب، وأصله القطع.

(٣) فعيرته بأمه: أي: نسبته إلى العار، وفي رواية: قلت له يا ابن السوداء.

(٤) أي: هذا التعبير من أخلاق الجاهلية فعنك خلق من أخلاقها.

(٥) البخاري «الفتح» (١/ ٣٠)، واللفظ له، ومسلم (١٦٦١).

(٦) انصبَّ.

(٧) رواه مسلم (١٦٩٥).

(٨) أي: التسوية بينهن في محبة القلب.

ابنة أبي قُحَافةَ، وأنا ساكِتَةٌ، قالت: فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أي بُنَيَّةُ، أَلسْتِ تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ؟»، فقالت: بلى، قال: «فأحِبِّي هذه»، قالت: فقامتْ فاطمةُ حين سمعت ذلك من رسولِ الله، فرجعت إلى أزواج النَّبيِّ فأَخْبَرَتْهُنَّ بالذي قالت، وبالَّذي قال لها رسول الله ﷺ، فقُلْنَ لها: ما نُراكِ أغنيْتِ عنَّا من شيءٍ.. قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: فأرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ زينبَ بنت جحْشٍ زوج زوْجَ النَّبِيِّ وهي التي كانت تُسَامِيني مِنْهُنَّ في المنزلةِ عند رسولِ الله ﷺ ولم أرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدِّين من زينب، وأتقى لله وأصدقَ حديثًا، وأوصل للرَّحم، وأعظم صدقةً، وأشدَّ ابتذالًا لِنَفْسِهَا في العمل الذي تصدَّقُ به، وتقرَّبُ به [١] إلى الله تعالى، ما عدا سورةً من حدٍّ[٢](وفي رواية من حِدَّةٍ) كانت فيها تُسرِعُ منها الفيْئَةَ [٣]، قالت: فاستأْذنت على رسولِ الله ﷺ ورسولُ الله ﷺ مع عائشة في مِرْطِهَا، على الحالةِ التي دخلتْ فاطمةُ عليها وهو بها، فَأذنَ لها رسولُ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إليك يسألنَكَ العدل في ابنة أبي قُحافة. قالت عائشة رضي الله عنها ثم وقعتْ بي فاستطالت عليَّ، وأنا أَرْقُبُ رسول الله ﷺ، وأَرْقُبُ طَرْفَهُ، هل يأذنُ لي فيها. قالت: فلم تَبْرَحْ زينبُ حتَّى عرفتُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ لا يَكْرَهُ أَنْ أنتصِرَ، قالت: فلمَّا وَقَعْتُ بها لم أنشبْهَا [٤] حين أَنْحيتُ عليها [٥]، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ وتَبَسَّمَ: إِنَّهَا ابْنَةُ أبي

---

(١) تَصَدَّق، وتقرب، الأصل فيهما تتصدق وتتقرب بتاءين حذفت الأولى تخفيفا.

(٢) المراد بِالحَدِّ أو الحِدَّةِ هنَا شدة الخلق وثورانه.

(٣) أي: تسرع إلى الرجوع منها.

(٤) لم أنشبها أي: لم أمهلها.

(٥) أنحيت عليها أي: قصدتها واعتمدتها المعارضة.

بكرٍ (١) رضي الله عنها»(٢).

• جاءَ في حديثِ الإفكِ قَوْلُ عائشةَ رضي الله عنها: وكان رسولُ الله ﷺ يَسْأَلُ زينب بنتَ جَحْشٍ عن أمرِي فقال: يا زينبُ، ماذا عَلِمْتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله، أَحْمِي سَمْعِي وبصري، ما علمتُ إلّا خيرًا، قالت عائشة رضي الله عنها، وهي (أي: زينب رضي الله عنها) التي كانت تُسَامِيني (٣) من أزواجِ النبي ﷺ فعصمَهَا اللهُ بِالورَعِ (٤)»(٥).

• عن المسورِ بن مخرمةَ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ وهو على المنْبَرِ: «**إنَّ بني هشامِ بنِ المُغيرةِ استأذَنُوا في أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عليَّ بن أبي طالب: فلا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذنُ، إلَّا أن يُريدَ ابنُ أبي طالبٍ أنْ يُطَلِّقَ ابنتي وينكِحَ ابنتَهُمْ، فإنَّما هي بضعَةٌ منِّي يُرِيبُني ما أَرَابَها، ويُؤْذِيني ما آذَاهَا**»(٦).

□ وقد ترْجَم الإمامُ البخاريُّ لهذا الحديث بوله: بابُ ذَبِّ الرَّجُلِ عن ابنته في الغيرةِ والإنصافِ. قال ابن حجرٍ: «أيْ في دَفْعِ الغيرةِ عنها

---

(١) مسلم (٤/ ٢٤٤٢).

(٢) ووجه الإنصاف هنا أن الغيرة واستطالة زينب على عائشة لم يمنعا عائشة من إنصاف زينب ووصفها بالتقوىٰ وصدق الحديث.. إلخ ما قالت.

(٣) تُسامِيني أي: تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانتها عند النبي ﷺ، واللفظ مأخوذ من السمو وهو الارتفاع.

(٤) انظر الحديث بطوله في البخاري «الفتح» (٨/ ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٥) ووجه الإنصاف في هذا الحديث أن الغيرة لم تمنع زينب من قول الحق في عائشة -رضوان الله عليهم أجمعين-.

(٦) رواه البخاري (٥٢٣٠).

والإنصافِ لها»[١].

إنْصَاف الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين لأهل الذمة:

• لقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ بإنصافِ أهل الذِّمَّةِ والمستأْمَنِينَ، ونهى عن ظُلْمهم في أحاديث كثيرةٍ، فهو القائِلُ ﷺ: **«مَنْ ظلم مُعاهدًا أو انتقصَهُ أو كلَّفَهُ فوق طاقَتِهِ، أو أخذَ مِنْهُ شيئًا بغيرِ طيبِ نَفْسٍ فأَنَا حَجِيجُهُ يومَ القيامةِ»**[٢].

• وقال ﷺ: **«مَنْ قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ[٣]. وإنَّ ريحها يُوجدُ من مسيرةِ أرْبعين عامًا»**[٤].

• وقال ﷺ: **«من قتل رجلًا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجدُ من مسيرة سبعين عامًا»**[٥].

✍ وحرصَ الخُلفاء الرَّاشِدُونَ والصَّحابة ﷺ على ذلك.

□ فها هو عمر بن الخطاب ﷺ يُوصِي بأهلِ الذِّمَّةِ قائلًا: **«أوصيكم بذمَّةِ الله فإنَّهَا ذِمَّةُ نبيِّكُمْ ورزقُ عيالكُمْ»**.

• وروَى مسلمٌ عن المستورد بن شدَّادٍ القُرشيِّ أَنَّهُ حدَّث عن عمرو ابن العاص ﷺ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«تَقُومُ الساعةُ**

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٣٨).

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٢).

(٣) يَرَح بفتح الياء والمراد أصلها يراح والمعنىٰ لم يجد ريح الجنة.

(٤) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٥) صحيح: رواه أحمد، والنسائي عن رجل، ورواه ابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٤٨).

والرُّومُ أكثرُ النَّاسِ». فقال عمرٌو: أبصر ما تقولُ، قال: أقولُ ما سَمِعْتُ من رسولِ الله ﷺ، قال: «لَئِنْ قلتَ ذاك إنَّ فيهم اخِصَالًا أربعًا: إنَّهُم أحْلَمُ النَّاس عندَ فتْنَةٍ، وأسرعُهُم إفاقةً بعد مُصِيبَةٍ، وأوْشكُهُم كَرَّةً بعد فَرَّةٍ، وخيرُهُمْ لمسكينٍ ويتيمٍ وضعيفٍ، وخامسةٌ حَسنةٌ جميلةٌ: وأمْنَعُهُمْ من ظُلْمِ الملوكِ». فانظر إلى إنْصَافِ عمرٍو وذكرِهِ ما يعلَمُهُ من الخِصَالِ الحسنةِ للرُّومِ، مع أنَّنا لا نَشُكُّ في براءَتَه منهم وعَداوتِهِ لهم.

□ وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى خيبرَ ليَخْرِصَ لهُمُ الثِّمارِ، فأرادوا أَنْ يَرْشُوهُ، فقال عبد الله: «يا معشر اليهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الخَلْقِ إليَّ، قتلْتُمْ أنبياءَ الله ﷻ، وكذبْتُمْ على الله، وليسَ يحمِلُني بُغْضِي إيَّاكُم على أَنْ أَحِيفَ عليْكُمْ. فقال اليهودُ: بهذا قامتِ السَّمَواتِ والأرضُ»[(١)].

□ قال الحافظ بنُ عبد البرِّ: «وفيه أنَّ المُؤْمِنَ وإنْ أبْغَضَ في الله لا يحْمِلُهُ بغضه على ظُلْمِ من أبْغَضَهُ»[(٢)].

□ لقد امتثل عبد الله بنُ رواحةَ رضي الله عنه للمَنْهَجِ الرَّبَّانيِّ الذي يَكْفُلُ العدْلَ بينَ النَّاسِ، والذِي يُعْطِي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ من المسلمين وغيرِ المسلمينَ. ففي هذا الحقِّ يتسَاوى عندَ الله المؤمنُونَ وغيرُ المؤمنين. قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٢١): ورجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا الزبير مدلس، وقد عنعنه، وللحديث شواهد، في «موطأ مالك» (٤٣٩)، وأبي داود (٣٤٧)، وابن ماجه (١/ ٥٥٧- ٥٥٨) تدل على أنَّ له أصلاً.

(٢) «التمهيد» لابن عبد البر (٩/ ١٤٠).

خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ [النساء][1].

وَقد أَقرَّ اليهودُ صَنِيعَ عبد الله بن رواحةَ لعلمِهِمْ أَنَّ العَدْلَ قَدْ أمرَ الله ﷻ به النَّاسَ جميعًا؛ لأَنَّهُ واجِبٌ لكُلِّ أحدٍ على كُلِّ أحدٍ في جميعِ الأحوال. والظُّلْمُ لا يُباحُ منهُ شيءٌ بحالٍ، ولذا قالوا لعبد الله بن رواحة: «هذا الحقُّ به تقومُ السماءُ والأرضُ»، أي: بهذا الحقِّ والعَدْلِ قامتِ السمواتُ فوقَ الرُّؤُوسِ بغيرِ عمدٍ، والأرضُ استقرَّت على الماء تحتَ الأقدامِ»[2].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله. فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربكُ شيطان حتى تصبح. فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان»[3].

والحكمة قد يتلقّاها الفاجر فلا ينتفع بها، وتؤخذ عنه فيُنتفع بها، وبأن الكذاب قد يصدق»[4].

□ قال الشاعر:

لا تحقـرن الـرأي وهـو موافـق ... حكم الصواب إذا أتى من نـاقص

فالـدر وهـو أعـز شيء يقتنـى ... مـا حـط قيمتـه هـوان الغـائص

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٥)، (٥٠١٠) مختصرًا، ورواه مطوّلاً.

(٤) «فتح الباري» (٤/ ٤٨٩).

تناصف الصحابة رضي الله عنهم (إنصاف الصحابة بعضهم لبعض):

✍ نذكر لذلك مواقف أرق من نسيم الفجر، وأزكى من عطر الورد:

(أ) إنصاف عائشة رضي الله عنها لحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ مع أنه ممن تكلم فيها بالإفك:

□ فعن عروة قال: ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه؛ فإنه كان ينافح [(١)] عن رسول الله ﷺ. وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن النبي في هجاء المشركين قال: كيف بنسبي؟ قال: «لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تسل الشعرة من العجين» [(٢)].

□ وعن عروة: «أن حسان بن ثابت كان ممن كثر [(٣)] على عائشة فسببته فقالت: يا ابن أختي دعه؛ فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ» [(٤)].

□ وقال عروة: «كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي … لعرض محمد منكم وقاء» [(٥)]

□ وعن مسروق قال: «دخلنا على عائشة رضي الله عنها وعندها حسان ابن

---

(١) أي: يدافع ويناضل.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٤٥).

(٣) أي: كثر القول فيها والعنت لها. «لسان العرب» (٤٢/ ٣٨٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٨٧) واللفظ له، والبخاري (٤١٤٥).

(٥) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) (٥٧).

ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له. وقال:

حصان[١] رزان[٢] ماتزن[٣] بريبة وتصبح غرثي[٤] من لحوم الغوافل[٥]

فقالت عائشة رضي الله عنها: «لكنك لست كذلك»[٦].

□ قال مسروق: «فقلت لها: لم تأذني له أن يدخل عليك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور][٧] فقالت: وأي عذاب أشد من العمى. قالت له: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ»[٨].

وفي رواية: «وقد كان يرد عن رسول الله ﷺ»[٩].

---

(١) أي: محصنة عفيفة.

(٢) رزان: كاملة العقل.

(٣) ما تزن: أي ما تتهم. يقال: زينته وأزننته إذا ظننت به خيرًا أو شرًا.

(٤) غرثي: أي جائعة ورجل غرثان، وامرأة غرثي: معناه لاتغتاب الناس لأنها لو اغتابتهم شبعت من لحومهم. شرح هذه المعاني مستفاد من «شرح النووي» (١٦/ ٤٧٤٦).

(٥) جمع غافلة، أي: غافلات عما رمين به من الفواحش «الفتح» (٨/ ٤٨٦).

(٦) دل قولها هذا: على أن حسان بن ثابت كان ممن تكلم فيها.

(٧) وهذا مشكل لأن ظاهره أن المراد بقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ هو حسان بن ثابت. وقد أخرجه البخاري (٤٧٤٩) عن عائشة: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ قالت: عبد الله بن سلول. وهو المعتمد وقد وقع في رواية عند أبي نعيم في «المستخرج» وهو ممن تولى كبره، فهذه الرواية أخف إشكالا، كما قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٤٨٥).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨).

(٩) أخرجه البخاري (٤٧٥٦).

(ب) إنصاف أم المؤمنين زينب لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وإنصاف عائشة لها:

وقد مرّ سابقًا.

(جـ) إنصاف أمير المؤمنين علي بن أبي ـالب لعائشة رضي الله عنها:

□ عن عاصم بن كُلَيْبٍ عن أبيهِ قال انْتَهَيْنا إلى عليٍّ رضي الله عنه فذكرَ عائشةَ فقال: خَلِيلَةُ رسولِ الله ﷺ، يقولُ الذَّهَبِيُّ: هذا يقولُهُ أَمِيرُ المؤمنينَ في حقِّ عائشةَ مع ما وقَعَ بينَهُمَا»[1].

ووجه الإنصاف هنا أن الخصومة بين علي وعائشة رضي الله عنهما لم تمنع أمير المؤمنين من إنصاف عائشة المتمثل في وصفها بأحب ما تُوصف به أمهات المؤمنين.

(د) إنصاف عمار بن ياسر رضي الله عنه لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رغم ما وقع بينهما من الحرب:

□ فقد خطب عمار بن ياسر في أهل العراق قبل وقعة الجمل ليكفهم عن الخروج مع أم المؤمنين عائشة فقالت: «والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي»[2].

□ قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث إن عمارًا كان صادق اللهجة، وكان لا تستخفه الخصومة إلى أن ينتقص خصمه، فإنه شهد لعائشة بالفضل

---

(١) «نزهة الفضلاء» لمحمد حسن عقيل موسى (١/ ١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٠)، وأخرج نحوه (٧١٠١).

التام مع ما بينهما من الحرب»[١].

□ وقال أيضًا الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: «مراد عمار بذلك أن الصواب في تلك القصة [٢] كان مع علي وأن عائشة مع ذلك لم تخرج

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥٩).

(٢) ما فعلت أم المؤمنين عائشة ذلك إلا متأولة قاصدة للخير. فقد أخرج أحمد (٦/ ٥٢، ٩٧)، وابن حبان (١٨٣١) «موارد»، والحاكم (٣/ ١٢٠) وغيرهم عن قيس ابن أبي حازم أن عائشة لما أتت علىٰ الحوأب سمعت نباح الكلاب فقالت: ما أظنني إلا راجعة إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب**». فقال لها الزبير: ترجعين عسىٰ الله ﷻ أن يصلح بك بين الناس. وفي رواية: «فقال بعض ما كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم.

وقد صححه جمع من الحفاظ. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٧٤).

ولا شك أن عائشة رضي الله عنها ندمت علىٰ خروجها وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل علىٰ أن خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور. قال الإمام الزيلعي في «نصب الراية» (٤/ ٦٩- ٧٠): «وقد أظهرت عائشة الندم، كما أخرجه ابن عبد البر في «كتاب الاستيعاب» عن ابن أبي عتيق وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: قالت عائشة لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلاً غلب عليك -يعني: ابن الزبير- فقالت: أما والله لو نهيتني ما خرجت. انتهىٰ».

ولهذا الأثر طريق أخرىٰ، فقال الذهبي في «سير النبلاء» (٧٨- ٧٩): «ورویٰ إسماعيل بن علية عن أبي سفيان بن العلاء المازني عن ابن أبي عتيق قال: قالت عائشة: إذا مر ابن عمر فأرنيه، فلما مر بها قيل لها: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك. يعني ابن الزبير».

وقال أيضًا: «إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: قالت عائشة رضي الله عنها: وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا، =

بذلك من الإسلام و أن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة فكان ذلك يعد من إنصاف عمار وشدة ورعه وتحريه قول الحق»[(١)].

□ وقد أخرج الطبري بسند صحيح عن أبي يزيد المديني قال: «قال عمار ابن ياسر لعائشة لما فرغوا من القوم: ما ابعد هذا المسير من العهد الذي عُهد إليكم يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قالت: والله إنك ما علمت لقوال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضى ليعلى لسانك» اهـ.

• بل لقد ردت على من وقع في عمار. فعن عطاء بن يسار قال: «جاء رجل فوقع في علي وفي عمار رضي الله عنهما عند عائشة رضي الله عنها فقالت: أما علي فلست قائلة لك فيه شيئًا، وأما عمار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يخير بين أمرين إلَّا أختار أرشدهما**»[(٢)].

ادفنوني مع أزواجه، فدفنت بالبقيع رضي الله عنها. قلت: تعني بالحدث مسيرها يوم الجمل، فإنها ندمت ندامة كلية، وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وجماعة من الكبار رضي الله عن الجميع» نقلا من «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني تعليقًا على حديث الحوأب.

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٣) واللفظ له، وأخرجه الترمذي (٣٧٩٩)، وابن ماجه (١/ ٦٦) «سندي»، والحاكم (٣/ ٣٨٨)، والخطيب (١١/ ٢٨٨) دون ذكر القصة، ورجاله ثقات لولا عنعنة حبيب بن أبي ثابت فقد رمى بالتدليس لكن يقوي الحديث أن له شاهدًا من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابن سمية ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما**» وسنده منقطع، سالم ابن أبي الجعد لم يلق ابن مسعود كما قال ابن المديني. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٣٥).

وقوله: «إلَّا اختار أرشدهما»: أي أصلحهما وأصوبهما وأقربهما إلى الحق.

وعمار رضي الله عنه أختار موافقة علي رضي الله عنه. ومع ذلك لم يمنع عائشة رضي الله عنها من إنصافه فشهدت له بما سمعته من النبي ﷺ في حقه فكان ذلك يعد من إنصاف عائشة وشدة ورعها وتحريها قول الحق بل والرجوع إليه. والله الموفق.

(س) إنصاف سعد بن أبي وقّاص لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

□ فعن خيثمة قال: «كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر فذكروا عليًّا فشتموه فقال سعد: مهلًا عن أصحاب رسول الله ﷺ فإنا أصبنا دنيا مع رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال] فأرجو أن تكون رحمة من عند الله سبقت لنا فقال بعضهم: فوالله إنه كان يبغضك ويسميك الأخنس[1] فضحك سعد حتى استعلاه الضحك ثم قال: أليس قد يجد المرء على أخيه في الأمر يكون بينه وبينه ثم لا يبلغ ذلك أمانته وذكر كلمة أخرى»[2].

---

(١) الخنوس: الانقباض والاستخفاء، وخنس الرجل: إذا توارىٰ وغاب. وانخنس: انقبض وتأخر. فلعل هذا هو المقصود من تسمية علي لسعد رضي الله عنهما بالأخنس لما قعد عن قتال البغاة مع علي ولزومه بيته في الفتنة. أو بعبارة أخرىٰ: إنه أطلق كلمات يظهر منها الغض من سعد لكي يكف الناس عن الغلو فيه الحامل لهم علىٰ اتباعه فيما يراه أخطأ فيه فكان صنيع علي رضي الله عنه من قبيل خشية اتباعه الناس لسعد رضي الله عنه في القعود. انظر: «التنكيل» (١/ ١٢- ١٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٩)، وابن راهويه كما في «المطالب» (٤/ ١٥٠)، وصححه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، وأره الذهبي.

أليس صنيع سعد رضي الله عنه هذا من الإنصاف بل لم يكتف سعد رضي الله عنه بما قال بل دعا على من تناول علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين بالسب.

• وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا له أن يستجيب الله دعوته. فعن قيس بن أبي حازم عن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم استجب لسعد إذا دعاك**»[١].

□ فعن مصعب بن سعد عن أبيه: «أنه سمع رجلًا يتناول عليًّا فدعا عليه فتخبطته بختية[٢] فقتلته»[٣].

□ وعن عامر بن سعد قال: «بينما سعد يمشي إذ مر برجل وهو يشتم عليا وطلحة والزبير فقال له سعد: إنك تشتم قومًا قد سبق لهم من الله ما سبق، فوالله لتكفن عن شتمهم أو لأدعون الله عز وجل عليك. فقال: تخوفني كأنك نبي، فقال سعد: اللهم إن هذا يشتم أقوامًا سبق لهم منك ما سبق فاجعله اليوم نكالًا، فجاءت بختية فأخرج الناس لها فتخبطته فرأيت الناس يتبعون سعدًا ويقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق»[٤].

□ قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: «في هذا كرامة مشتركة بين

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٥١)، وابن حبان (٥/ ٢٢٩ «موارد»)، والحاكم (٣/ ٤٩)، وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي والألباني.

(٢) البُخت: نوع من الإبل.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٥/ ٣٢١٤٩) بإسناد صحيح.

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٤٠) وفيه محمد بن محمد بن الأسود وهو مستور كما في «التقريب» وقد ذكر له الذهبي في «السير» شاهدًا هو به «حسن» انظر: «البدائل» (ص١٤٦) لصاحبنا محمد عمرو.

الداعي والذين نيل منهم».

• هكذا كانوا. فهذا علي رضي الله عنه رغم قعود سعد رضي الله عنه عن قتال البغاة معه وحزنه من صنيعه لم يمنعه من ذكر فضيلته. أليس عليًّا رضي الله عنه قال: ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم جمع أبويه لأحد إلَّا لسعد بن مالك -وهو سعد ابن أبي وقاص- فإني سمعته يقول يوم أحد: «**يا سعد أرم فداك أبي وأمي**»[(١)]. هكذا يكون الإنصاف. والله المستعان.

(ص) شهادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالفقه والعلم رغم ما حدث بينهما:

□ فعن سعيد بن المسيب رحمه الله: «أن رجلًا من أهل الشام، يقال له: ابن خيبري وجد مع امرأته رجلًا فقتله، أو قتلها معًا. فأشكل على معاوية ابن أبي سفيان القضاء فيه. فكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، يسأل له علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك. فسأل أبو موسى، عن ذلك، علي بن أبي طالب. فقال له علي: إن هذا شيء ما هو بأرضي. عزمت عليك لتخبرني. فقال له أبو موسى: كتب إليَّ معاوية بن أبي سفيان أن أسألك عن ذلك. فقال علي: أنا أبو حسن: إن لم يأت بأربعة شهداء فليعط بِرُمَّتِه»[(٢)]. فيا ليتنا نعتبر!!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٩)، ومسلم (٢م٤١١). أما قول علي رضي الله عنه: «ما جمع أبويه لغير سعد» ففي هذا الحصر نظر وذلك أنه صلى الله عليه وسلم جمعهما للزبير يوم الخندق، أخرجه البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤٤٦). قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٨٤): «ويجمع بينهما بأن عليًا رضي الله عنه لم يطلع على ذلك، أو مراده بذلك بقيد يوم أحد، والله أعلم»اهـ.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (ص٤٦٠)، وسنده صحيح. فليعط برمته: أي يُسلِّم إلى =

وفيه شهادة من معاوية بفقه وعليم عليٍّ رغم ما حدث بينهما.

(ط) إنصاف عائشة رضي الله عنها لمعاوية بن خدَيْج رضي الله عنه:

• عن عبد الرحمن بن شُماسَة قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها، فقالت: ممَّنْ أنت؟ قلتُ: من أهلِ مِصْر، قالت: كيف وجدْتُم ابن حُدَيْج [(١)] في غزاتِكُمْ هذه؟ قلتُ: خير أميرٍ، ما يقفُ لرجلٍ منَّا فرسٌ ولا بعيرٌ إلَّا أبدلَهُ مكانَهُ بعيرًا، ولا غُلامٌ إلَّا أبدل مكانَهُ غُلامًا، قالت: إنَّهُ لا يمنعُنِي قتْلُهُ أخي أَنْ أُحَدِّثكم ما سمِعْتُ من رسولِ الله ﷺ، إنِّي سَمِعْتُهُ يقولُ: «**اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شيئًا فرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ، ومنْ شَقَّ عليْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ**» [(٢)].

ووجْه الإنصاف هنا أن عائشة رضي الله عنها أشارت إلى أن قاتل أخيها ممَّن دعا لهم رسول الله ﷺ بأن يرفق الله بهم، ولم تمنعها كراهيتها قَتْل أخيها على يديْه من أن تُنصِفَه بذكر بشارة النبي ﷺ له.

(ع) إنصاف أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

□ عن ابن أبي زَائِدَةَ قال: «سمعتُ عامرًا يقولُ: تَزوَّجَ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أسماء بِنْتَ عُمَيْسٍ، فتفاخَرَ ابناها: مُحَمَّدُ بن أبي بكرٍ، ومحمَّدُ ابن جعفرٍ -الطَّيَّار-، فقال كُلٌّ منهما أنا أكرمُ مِنْكَ وأبي خَيْرٌ من أبيكَ. فقال لها عليٌّ -كرَّم الله وجْهَهُ- اقْضِ بينهما. قالت رضي الله عنها: ما رأيتُ شَابًّا مِنَ

أولياء المقتول يقتلونه قصاصًا.

(١) معاوية بن حديج بن نعيم الكندي كان صحابيًا، وكان عثمانيًا من أخلص أتباع معاوية، وهو قاتل محمد بن أبي بكر شقيق عائشة.

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٢١٥).

العربِ خيرًا من جَعْفَرٍ، ولا رأيتُ كَهْلًا خَيْرًا من أبي بكرٍ. فقال عليٌّ: ما تركت لنا شيئًا، ولو قلتِ غيرَ الذي قُلْتِ لمقَتُّكِ. قالتْ: إِنَّ ثلاثةً أنتَ أَخَسُّهُمْ خِيَارٌ»[١].

ووجه الإنصاف هنا أنها أعطت زوجيْها الراحليْن أبي بكر الصديق وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما حقَّهما أمام زوجها الثالث وهو عليٌّ -كرم الله وجهه-، ولم تمنع وفاه كل منهما أن يُعطَى حقه، وكان من إنصاف علي رضي الله عنه أن أقرَّها على ما قالت زعمًا عن أنفها لم تبق له من المديح شيئًا، كما أنه لم يغضب عندما ذكرت أنه أقلّ الثلاثة رتبة وإن كانوا جميعًا من الأخيار.

إنصاف عثمان بن عفَّان رضي الله عنه:

□ قال حُصيْنُ بنُ المنذرِ: «صَلَّى الوَليدُ الفَجْرَ أربعًا وهو سكْرَانُ ثُمَّ التَفَتَ، وقال: أَزِيدُكُمْ؟ فبلغَ ذلك عثمان بن عفَّانَ رضي الله عنه فطلبَهُ وحدَّهُ»[٢].

وفي هذا فيه من الإنصاف ما فيه، حيث لم تمنع قرابة عثمان للوليد من إقامة الحدِّ عليه، وقد كان الوليد أخًا لعثمان من أُمِّه.

إنصافُ أهل السنة والجماعة للمبتدعة:

إذا كُنَّا مَأمُورينَ بالإنْصَافِ مع غير المسلمين فلأنْ نكونَ مُنْصِفينَ لأهلِ البِدْعَةِ مِمَّنْ لم يخجُوا عن الإسلام أوْلَى.

□ يقول ابن تيمية رحمه الله: «كُلُّ من كان مُؤمنًا بما جاءَ به محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فهو خيرٌ من كُلِّ مَنْ كفر به، وإن كان في المؤمنِ بذلك نوعٌ من البدعةِ سواءً

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ١٤٨).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٢٩٢)، ومعنىٰ حدَّه: أقام عليه الحَدَّ.



كانت بدعةَ الخوارجِ والشِّيعةِ والمرجئةِ والقدريَّةِ أو غيرهم، فَإِنَّ اليهود والنَّصارى كُفَّارٌ كُفْرًا معلومًا بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ، والمبتدعُ إذا كان يحسبُ أَنَّهُ مُوافقٌ لرسولِ الله ﷺ لا مُخالفٌ له لم يكُنْ كافرًا به، ولو قُدِرَ أَنَّهُ يُكَفَّرُ فليس كفره مثل كُفْرِ من كذَّبَ الرسولَ ﷺ»[1].

وقال -وهو يتحدَّثُ عن الصُّوفيَّةِ وما أحدَثُوه من السَّماعِ والرَّقْصِ وتمزيقَ الثِّيَابِ: «والذين شهدوا هذا اللَّغْو مُتأوِّلين من أهلِ الصِّدق والإخلاص غمرت حسناتُهم ما كان لهم من السَّيِّئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيلُ كُلِّ صالحي الأمَّةِ في خطئهم وزلاتهم»[2].

وقال فيمنْ خالفُوهُ وكفَّرُوه من أهلِ البدع: «هذا، وأنا في سعةِ صدرٍ لمن يُخالِفُني، فإنَّه وإنْ تعدَّى حدودَ الله فيَّ بتكْفِيرٍ أو تَفْسِيقٍ أو افتراءٍ أو عصبيَّةٍ جاهليَّةٍ فأنا لا أتعدَّى حدودَ الله فيهِ، بل أضبطُ ما أقولُه وأفعلُهُ وأزِنُهُ بميزانِ العدلِ، وأجْعَلُهُ مؤْتمًّا بالكتاب الذي أنزله الله وجعلَهُ هُدًى للنَّاسِ حاكمًا فيما اختلفُوا فيه». إلى أن قال: «وذلك أنَّك ما جزيْتَ من عصى الله فيك بمثل أن تُطِيعَ الله فيه»[3].

□ وكتب رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أصحابه من سجنه الظالم في مصر «فلا أحبُّ أن يُنتَصر من أحدٍ بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللتُ كل مسلم، وأنا أحبُّ الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما

---

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٣٥/ ٢٠١).

(٢) «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ١٩٧- ١٩٨).

(٣) «مجموع فتاوىٰ بن تيمية» (٣/ ٢٤٥- ٢٤٦).

أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حِلٍّ من جهتي.. أسأل الله أن يتوب عليهم»[١].

وأما ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فحين تحدَّث عن الصوفيَّةِ وشطحاتِهِمْ قال فيها قال: «.. هذا ونحوه من الشَّطحات التي تُرْجَى مغفرتُها بكثرة الحسناتِ، ويستغْرِقُهَا كمالُ الصِّدقِ، وصحَّةُ المعاملة، وقُوَّةُ الإخلاصِ، وتجريدُ التَّوْحيدِ، ولم تُضْمَنِ العصمةُ لبشرٍ بعد رسولِ الله ﷺ ولو كان كُلُّ من أخْطأَ أو غَلِطَ تُرِكَ جُمْلَةً، وأُهْدرتْ محاسِنُهُ، لفسدتِ العلومُ والصِّناعاتُ، والحِكَمُ، وتعطَّلَتْ معالِمُها».

وإذا كانت هه الشَّطحاتُ قد أوجبتْ فِتْنَةً على طائفتين من النَّاس: إحداهما: حُجِبَتْ بها -أي: بالشَّطحاتِ- عن محاسنِ هذه الطائفة والأخرى: حُجِبَتْ بما رأوه من محاسن القوم عن رُؤْيةِ عُيوبِ شطحاتهم وكلا هاتين الطائفتين مُعْتَدٍ مُفَرِّطٍ.

أمَّا أهل العدلِ والإنصاف فهم هؤلاء الذين أعطوا كُلَّ ذي حَقٍّ حقَّهُ، ولم يحكموا للصحيح بحكم السَّقيم، ولا للسقيم بحكم الصحيح، ولكن قَبِلُوا ما يُقْبَلُ ورَدُّوا ما يُرَدُّ[٢].

ولو لم يكن إلَّا إنصافه الجميل للهروي صاحب «منازل السائرين» -وهو من أئمة الصوفية- لكفاه.

---

(١) «مجموع فتاوىٰ بن تيمية» (٢٨/ ٥٥- ٥٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٠، ٤١).

آداب أهل الإنصاف:

التَّحَلِّي بصِفَةِ الإنصافِ، وسُلوكِ دَرْبِ المنصفين يلزمُ معه التَّأَدُّبُ بآدابٍ خاصَّةٍ، وقد التَزمَ بها أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وعلى من يسيرُ على منهجهم أنْ يتأَدَّبَ بتلك الآداب وأهمُّها:

١ - التَّجَرُّدُ وتحرِّي القصد عند الكلام على المخالفين:

وذلك أَنَّهُ قد تلتبسُ المقاصدُ عند الكلام عن المخالفين، فهناك قصدُ حُبِّ الظُّهور، وقصدُ التَّشفِّي والانتقام، وقصدُ الانتصار للنَّفْس أو للطَّائفةِ التي يَنتمي إليها النَّاقدُ.. وقد حذَّر ابن تيمية من يَرُدُّ على أهل البدع من التباس المقاصد فقال: «.. وهكذا الرَّدُّ على أهل البدع من الرَّافضةِ وغيرهم، وإذا غلَّظَ في ذَمِّ بدعةٍ أو معصيةٍ كان قصدهُ بيانَ ما فيها من إفسادٍ ليحذرَ العبادُ، كما في نصوص الوعيد وغيرها. وقد يهجُرُ الرَّجُلَ عقوبةً وتعزيرًا والمقصودُ بذلك ردعه وردْعُ أمثاله للرَّحْمَةِ والإحسان، لا للتَّشفِّي والانتقام».

وقد انتبه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذا الأمرِ فوضع قاعدةً لمن يُريد أن يتجَرَّدَ من الهوى فقال: «وكُلُّ أهل نحلةٍ ومقالةٍ يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مُخالفيهم أقبح ما يقدرُون عليه من الألفاظِ، ومن رزقَهُ الله بصيرةً فهو يكشفُ بها حقيقة ما تحت الألفاظ من الحقِّ والباطل، ولا تغتر باللفظِ كما قيل في هذا المعنى:

تَقُولُ هَذا جَنَى النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ: ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

٢- أهمية التبين والتثبت قبل إصدار الأحكام:

* وذلك امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات].

* وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤].

□ والتَّبيُّن والتثبُّتُ من خصائص أهلِ الإيمان، قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤْمِنُ وقَّافٌ حتَّى يتبيَّنَ».

□ وقال الإمام محمَّدٌ بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتى لم يتبيَّنْ لكم المسألةُ لم يَحِلَّ لكم الإنكارُ على من أفتى أو عملَ حتَّى يتبيَّنَ لكم خطؤُهُ، بل الواجِبُ السُّكُوتُ والتَّوقُّفُ».

٣- حمل الكلام على أحسن الوجوه، وإحسان الظن بالمسلمين:

فالواجبُ على المسلم أن يُحْسِنَ الظَّنَّ بكلام أخيه المسلم، وأن يحملَ العبارة المحتمِلَة محملًا حسنًا. فقد حَثَّ الرَّسولُ ﷺ على إحسانِ الظَّنِّ بالمسلم حين قال وهو يَطوفُ بالكعْبَةِ: «ما أَطْيَبَكِ وأطيب ريحك، وما أعظمكِ وأعظم حُرْمَتَكِ، والذي نفس محمَّدٍ بيده لحرْمَةُ المؤمن أعظم عند الله حُرْمَةً منكِ، ماله ودَمِهِ، وأن لا يُظَنَّ به إلَّا خيرًا».

□ وقال سعيدُ بن المسيَّبِ: «كتب إليَّ بعضُ إخواني من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «أَنْ ضَعْ أمرَ أخيكَ على أَحْسَنِهِ ما لم يأتِكَ ما يَغْلِبُكَ، ولا تظُنَّنَّ بكلمَةٍ خرجتْ من امرِئٍ مسلمٍ شرًّا وأنت تجِدُ لها في الخير محملًا».

٤- أَلَّا يَنْشُرَ سَيِّئَاتِ المُخَالِفِ وَيَدْفِنَ حَسَنَاتِهِ:

فقد ذكَّرَ الرَّسولُ ﷺ عُمَرَ بحسنات حاطبٍ فقال: «وما يُدْرِيكَ يا عُمرُ

لعلَّ الله قد اطَّلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئْتُمْ فقدْ غفرتُ لكم».

فكونُ حاطبٍ من أهل بدرٍ ترفعُهُ ويذكرُ له في مُقَابلِ خطئهِ الفاحش، ولذا غُفِرَ له خطؤُهُ.

٥- النقد يكون للرأي وليس لصاحب الرأي:

فالنَّقْدُ الموضوعيُّ هو الذي يتَّجِهُ إلى الموضوع ذاته وليس إلى صاحبه. وكان الرَّسولُ ﷺ إذا حدث خطأٌ من أحدِ أصحابه أو بعضهم. لا يسمِّيهم غالبًا وإنَّما يقول: «ما بَالُ أَقْوامٍ»، «ما بَالُ رِجَالٍ».

٦- الامتناع عن المجادلة المفضية إلى النزاع:

• وقدْ حَذَّر الرَّسُولُ ﷺ من الجدلِ المفضي إلى الخصومةِ فقال: «إنَّ أبْغَضَ الرِّجالِ إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ».

□ وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لا تُمَارِ أخاك؛ فإنَّ المراءَ لا تُفْهَمُ حكمَتُهُ، ولا تُؤْمَنُ غائِلتُهُ..».

□ وقال مالك بنُ أنسٍ: «المراءُ يُقَسِّي القلوبَ، ويُورِثُ الضَّغائِنَ».

٧- حمل كلام المخالف على ظاهره وعدم التعرض للنوايا والبواطن:

• وقد علَّمنا ذلك رسولنا الكريم ﷺ حينما قتل أسامة بن زيدٍ المشركَ بعد أن قال: لا إله إلَّا الله، فلمَّا علم ﷺ أنْكَرَ ذلك عليه، فقال أسامةُ: إنَّما

قالها متعوِّذًا. فقال ﷺ: «هَلَّا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ»[١].

٨- عدم الإصرار على الخطأ الرجوع إلى الحق عند ظهوره وبيانه[٢]:

ونذكر لذلك أمثلة:

(أ) صنيع الحاكم مع الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي رحمهما الله:
وفي ذلك يقول الحافظ عبد الغني: «لما رددت على أبي عبد الله الحاكم «الأوهام التي في المدخل إلى الصحيح» بعث إلى يشكرني، ويدعو لي فعلمت أنه رجل عاقل»[٣].

□ وقال الحافظ ابن كثير في «البداية»: «وقد صنف الحافظ عبد الغني هذا كتابًا فيه أوهام الحاكم، فلما وقف عليه الحاكم، جعل يقرؤه على الناس، ويعترف لعبد الغني -بالفضل ويشكره- ويرجع فيه إلى ما أصاب فيه من الرد عليه رحمهما الله تعالى»[٤].

(ب) ما ذكره الحافظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»[٥]:

□ عن أبي محمد قاسم بن أصبغ، قال: «لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت إلى بغداد

---

(١) ينظر: كتاب «إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفيهم» لمحمد بن صالح بن يوسف العلي (٦٩- ١٠١) ط- دار الأندلس الخضراء- جدة.

(٢) نقلاً عن كتاب «الإنصاف» (ص٦٣- ٦٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٧٠)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٤٨).

(٤) «البداية والنهاية» (١٢/ ٧- ٨).

(٥) «جامع بيان العلم» (١/ ١٣٣- ١٣٤).

ولقيت الناس فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد فقرأت عليه فيه يومًا حديث النبي ﷺ فإنه: «قدم قوم من مضر مجتابى النمار»(١)، فقال: «مجتابى الثمار» فقلت له: إنما هو «مجتابى النمار» هكذا قرأته على كل من قرأت عليه بالأندلس وبالعراق فقال لي: بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ، «لشيخ كان بالمسجد»، فإن له بمثل هذا علمًا فقمنا إليه وسألناه عن ذلك فقال: إنما هو «مجتابى النمار»(٢).

كما قلت: وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم، والنمار: جمع نمرة. فقال بكر بن حماد: وأخذ أنفه رغم أنفي للحق وانصرف».

هذا هو خُلق أهل الإنصاف أما نظرة أهل الجور والظلم والبغي والهوى لناصحيهم فهي كما تمثل بعضهم قول الشاعر:

لو كل كلب عوى ألقمته حجرًا — لعز الصخر مثقال بدينار!!

٩- ما عليه أهل الإنصاف من أن العالم لا يتبع بزلته ولا يؤخذ بهفوته بل يذكر ما له وما عليه:

فقد تتابعت كلمة العلماء في الاعتذار عن الأئمة فيما بدر منهم، وأن ما

---

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاء قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر..» (الحديث).

(٢) قال النووي في «شرح مسلم» (٧/ ٧٠٢): «النِّمار -بكسر النون- جمع نمرة بفتحها وهي ثياب صوف فيها تنمير، وقوله: «مجتابي النمار»: أي خرقوها وقوروا وسطها» اهـ.

يبدو من العالم من هنات لا تكون مانعة للاستفادة من علمه وفضله. وسوف أكتفي بإشارات تدل على المقصود [١].

□ قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» من ترجمة قتادة ابن دعامة السدوسي: «ثم أن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له الله، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم: ولا نقتدى به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك» [٢] اهـ.

□ وقال أيضًا في دفع العتاب عن الإمام محمد بن نصر المروزي -رحمه الله تعالى- «السير» [٣]: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدَّعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة» اهـ.

□ وقال في ترجمة القفال الشاشي الشافعي (ت سنة ٣٦٥هـ) رحمه الله تعالى «السير»: «قال أبو الحسن الصفَّار: سمعت أبا سهل الصعلوكي، وسئل عن تفسير أبي بكر القفال، فقال: قدَّسه من وجه ودنَّسه من وجه، أي دنَّسه من جهة نصره للاعتزال. قلت: قَدْ مَرَّ موته، والكمال عزيز، وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطةٍ ولعله

(١) يراجع كتاب «التعالم» للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه الله مبحث «في أن العالم لا يُتْبَع بزلته ولا يؤخذ بهفوته» وعنه أخذنا بتصرف.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٧١).

(٣) المصدر السابق (١٤/ ٤٠).

رجع عنها. وقد يغفر له في استفراغه الوسع في طلب الحق ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»[١] اهـ.

□ ونضيف أيضًا ما قاله الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام ابن حزم رحمه الله تعاليفي «تذكرة الحفاظ»[٢]: «ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله ﷺ» اهـ.

□ وقد قيل:

من ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرءَ نبلًا أن تعد معايبه

أما ما نشاهده في دنيا المسلمين اليوم من تطاول بعض الجهال والمتعالمين على أهل العلم لمجرد خطئهم في عدة مسائل فهو عين الجور وعدم الإنصاف، والله المستعان على ما يفعلون.

إنصاف الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف لمحدث الدنيا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني:

□ يقول الشيخ ساعد عمر غازي في كتابه الطيب «الإنصاف»: «فأما الخُلق الذي يجب أن يتحلى به أمثالنا من طلاب العلم الناشئين مع مشايخهم وإن خالفوهم في مسائل فأترك أخي محمد عمرو عبد اللطيف حفظه الله تعالى ليخبرنا به وهو يرد على شماتة بعض الناقمين على الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله تعالى لمخالفة بعض محبيه من

---

(١) «السير» (١٦/ ٢٨٥).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١١٥٣ - ١١٥٤).

طلبة العلم له قال ما نصه: «هذا، وقد ثبت لَدَيَّ أن بعض الناقمين على الشيخ -متعنا الله بعمره وعلمه- قد فرح وشمت به لما وجد بعض تلاميذه -يقصدني وأخي أبا إسحاق الحويني حفظه الله- يخالفونه في بعض الأشياء، وذلك لما اطلع -فيما اطلع- على القسم الأول من هذا الكتاب -ولا سيما حديث تحريك الإصبع في الصلاة خاصة- فأقول له: كلا وألف كلا، إياك أن تخلط بين الأمور، ولا يتداخلن عليك الفارق بين الحب والإعظام، وبين الرغبة في تحري الحق والصواب. وإن للشيخ -عافاه الله- في قلوبنا لمنزلةً يكل اللسان عن وصفها، ونرجو أن تزداد كل يوم حبًا له وإجلالًا لعظيم ما أجراه الله ﷻ على يديه من نعمة العلم والفهم والتدقيق. وحسبك أيضًا أيها الشامت أن تعلم أن لولا أن الله ﷻ سخر لنا هذا الرجل وكتاباته، لظللنا حتى الساعة نعتمد على مثل رموز السيوطي -التي غشاها ما يغشى- وتصحيحات الحاكم وإطلاقات المنذري والهيثمي بنحو: «رجاله ثقات» و«رجاله رجال الصحيح»، والعراقي بتضعيف الواهي والموضوع ولظللنا نضفي على ما في «تقريب الحافظ» رَحِمَهُ اللَّهُ قدسية لا يغتفر المساس بها. أقول هذا استبشاع ما رمى به بعض مخالفي الشيخ حفظه الله الحافظ ابن حجر روَّح الله روحه بأنه مجرد ناقل فقط لأقوال الأئمة! وليس من حقه الترجيح!! بل هو إمام كبير أحاط بالسنة كما وصفه شيخنا المطيعي رَحِمَهُ اللَّهُ غير مرة، ولكن العصبية تفعل بأهلها الأفاعيل. فمن الحافظ وأمثاله من منصفي الأئمة نتعلم الإنصاف ونبذ العصبية لمذهب أو رأى تلوى من أجله أعناق النصوص، ويغمض عما يدين رأي المخالف، على مذهب ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أو

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ دون إتمام الآية. نعوذ بوجه ربنا الكريم من الخذلان وترك الإنصاف والانتصاف عند اشتداد الحاجة إليهما»(١).

وأختم بالنصيحة الغالية للشيخ العلامة طاهر الجزائري (ت سنة ١٣٣٨هـ) رحمه الله تعالى، وهو على فراش الموت: «عدُّوا رجالكم، واغفروا لهم بعض زلّاتهم، وعضوا عليم بالنواجذ لتستفيد الأمّة منهم، ولا تنفِّروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم»(٢) اهـ.

١٠- ما عليه أهل الإنصاف من وضع العلم في أهله، والاعتراف بالفضل لأولي الفضل والسبق والتقدم:

□ قال الإمام الشافعي للإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى: «أنتم: أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحًا، فأعلموني كوفيًّا كان أبو بصريًّا أو شاميًّا، حتى أذهب إليه، إذا كان صحيحًا»(٣).

□ قال القاضي ابن أبي يعلى رَحِمَهُ اللَّهُ في «طبقات الحنابلة»: «وهذا من دين الشافعي حيث سلم هذا العلم لأهله»(٤).

---

(١) «تبيض الصحيفة» لمحمد عمرو عبد اللطيف- القسم الثاني (ص٤٥).

(٢) «الإنصاف» (ص٦٥- ٦٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٩٤- ٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٧٠)، والخطيب في «الاحتجاج بالشافعي» (ص٧٠)، وابن عبد البر في «الانتقاء» (ص٧٥)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٥٢٨)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٦٠١- ٦٠٢) وغيرهم من طرق عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أن الشافعي قال له.. وهو صحيح عنه كما قال الألباني في مقدمة «صفة الصلاة» (ص١٨).

(٤) «طبقات الحنابلة» لأبي يعلىٰ (١/ ٦).

✍ يا ليتنا نتخلق بهذا الخلق.

□ ورحم الله تعالى الإمام الصنعاني حيث قال في «إرشاد النقاد» (ص٢٢): «ولا تكن من كفار النعم وأشباه النعم: وإنما يعرف الفضل لأولي الفضل من هو منهم وإليه أشار من قال:

إذا أفادك إنسان بفائدة ... من العلوم فأكثر شكره أبدًا

وقل فلان جزاه الله صالحة ... أفادنيها وخل اللؤم والحسدا

وبهذا يبطل تشيع الجهال بأن من خالف الأوائل في بعض المسائل قد ادعى الترفع عليهم وقال: «إنه أعلم منهم»، وهذا خيال باطل وسوء ظن حاصل وإلَّا لزم أن التابعين قد ادعوا الفضل على السابقين من الأنصار والمهاجرين وأن الأئمة المتأخرين قد ادعوا أن لهم الفضل على المتقدمين وهيهات ما زال الفضل للمتقدم معروفًا وما برح السابق بالتفضيل موصوفًا:

ولو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بعدي شفيت بعد التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم» اهـ

ولكن ليس من الإنصاف أن يُهضم حق المصيب لكونه حديثًا. ولله درُّ من قال:

لا تقل ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصل

فكم من تلميذ أعلم من شيخه وأفضل منه.

١١- من الإنصاف لحظ المحاسن والغض عن المساوئ:

وخير مثال على ذلك نصيحة سفيان بن عيينة والأعمش رحمهما الله

تعالى:

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل لسفيان بن عيينة: إن قومًا يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم يوشك أن يذهبوا ويتركوك».

قال: «هم حمقى إذن مثلك، إن يتركوا ما ينفعهم لسوء خُلُقي»(١).

□ وقال الشافعي أيضًا: «جاء رجل إلى الأعمش ومعه آخر لا يريد الحديث فسأله هذا عن حديث فغضب عليه الأعمش فسكت الرجل».

فقال الآخر: ولو كنت مثلك ما أتيت هذا أبدًا.

□ فقال له الأعمش: «هو إذن أحمق مثلك أن يترك ما ينفعه لسوء خُلُقي»(٢).

إذن فالغضُّ عن المحاسن ولحظ المساوئ ولو كانت قليلة من عدم الإنصاف.

قواعد في الإنصاف:

١ - العداوة تزيل العدالة:

فإذا عُلِم بين اثنين تعاديًا لم تقبل شهادة ذا على ذا(٣).

٢ - إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تُذْكَر المساوئ:

□ قال شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك: «إذا غَلَبت محاسنُ الرجل على مساوئه لم تُذكَر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تُذكر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٢٠٦) بسند صحيح عن الشافعي.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٣١٥- ٣١٦) بسند صحيح عنه.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٧٨).

المحاسن»[١].

٣- ليس من شرط الثقة أن لا يُخطئ ولا يغْلَط ولا يسهو:

□ قال الذهبي بعد أن ردَّ على ابن أبي داود كلامه المُسْتَهجَن في «حديث الطَّيْر»: «أخطأ ابن أبي داود في عبارته وقوله، وله على خَطئه أجرٌ واحد، وليس من شرط الثقة أن لا يُخطئ ولا يغلط ولا يَسْهو. والرجل فمن كبار علماء الإسلام، ومِنْ أوْثق الحُفَّاظ»[٢].

٤- يُمدح العالِم بكثرة ماله من الفضائل:

□ قال أبو الحسن الصفَّار: «سمعتُ أبا سَهل الصعلوكي، وسُئِل عن تفسير أبي بكر القفَّال، فقال: قدَّسه من وجه، ودنَّسه من وجه،أيْ: دَنَّسَه من جه نصره للاعتزال.

قال الذهبي: «قلت: الكمال عزيز، وإنما يُمدَح العالم بكثرة ماله من الفضائل، فلا تُدْفَن المحاسنُ لورْطة، ولعلَّه رجع عنها، وقد يُغفَر له باستفراغه الوُسْعَ في طلب الحق ولا قوّة إلَّا بالله»[٣].

ضوابط جميلة في إعذار من تلبَّس ببدعة أوْ خطأ:

□ قال الذهبي في دفاعه وإنصافه لقتادة السّدوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولعلَّ الله

---

(١) «سير أعلام النبلاء» ترجمة ابن المبارك (٨/ ٣٧٨- ٤٢١)، و«نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦٥٦).

(٢) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٩٦٣) نقلا عن ترجمة ابن أبي داود في «السير» (١/ ٢٢١- ٢٣٧).

(٣) «نزهة الفضلاء» (٢/ ١١٧٨) نقلاً عن ترجمة القفَّال الشاشي في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٨٣- ٢٨٥).

يعذرُ أمثاله ممَّن تلبَّس ببدعة يُريدُ بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وُسْعَه، والله حَكَمٌ عدل لطيف بعباده، ولا يُسأل عما يفعل.

ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابُه، وعُلِمَ تحرِّيه للحق، واتَّسع علمُه، وظهر ذكاؤه، وعُرِفَ صلاحُه وورعه واتباعه، يُغفر له الله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسِنَه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك»[١].

□ وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان مثلُ كبراء السابقين الأوَّلين قد تكلَّم فيهم الروافض والخوارج، ومثل الفُضَيْل يُتكلَّم فيه، فمن الذي يسلمُ من ألسنة الناس، لكن إذا ثبتت إمامة الرجل وفضله، لم يَضُرَّه ما قيل فيه، وإنما الكلام، في العلماء مُفْتَقِرٌ إلى وزن بالعدل والورع»[٢].

□ قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «رضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟! ومع هذا فكان ملازمًا لشرب نبيذ الكوفة الذي يُسْكِر الإكثار منه فكان متأوِّلًا في شربه، ولو تركَهُ تورُّعًا، لكان أوْلى به، فإنَّ من توقَّي الشُّبهات، فقد استبرأ لدينه وعِرْضه، وقد صحَّ النهي والتحريم للنبيذ المذكور..

«وكلُّ يُؤخذُ من قوله ويُترَك، فلا قُدْوَة في خطأ العالِمِ، نَعَم، ولا يوبَّخ بما فعله باجتهاد، نسأل الله له المسامحة»[٣].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلُّ أَحَدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك إلَّا رسول الله ﷺ، ولكن إذا أخطأ إمام في اجتهاده، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنَه، ونُغطِّي

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٨٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٧٠).

(٣) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٦٩٧)، وترجمة وكيع في «السير» (٩/ ١٤٠ - ١٦٨).

معارفَه بل نستغفِرُ له، وتعتذر عنه»[١].

ومِنَ الإنصافِ أن لا يُقبل كلامُ الأقرانِ في بعضهم البعض:

ولم يلتفت أهل العِلْمِ في هذا النَّحْو إلَّا ببيان وحُجَّة ولم تسقطُ عدالتهم إلَّا ببرهان ثابت وحُجّة، والكلام في هذا كثير.

▫ قال الذهبي: «لَسْنا ندَّعي في أئمة الجرح والتعديل العِصْمة من الغَلَط النادر، ولا من الكلام بِنَفسٍ حَادٍّ فيمن بينهم وبينه شحْناء وإِحْنة[٢]، وقد عُلِمَ أن كثيرًا من كلام الأقران بعضهم في بعضٍ مُهْدَرٌ لا عِبْرَةَ به، ولا سيَّما إذا وثَّقَ الرَّجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف»[٣].

▫ قال الذهبي في ترجمة ابن أبي ذئب في «السير»: «وبكل حالٍ فكلامُ الأقران بعضُهم في بعضٍ لا يُعَوَّل على كثير منه، فلا نَقَصَت جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب فيه، ولا ضعَّفَ العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالمًا المدينة في زمانهما رضي الله عنهما»[٤].

▫ وقال الذهبي: «فكلام الأقران بعضهم في بعضٍ أمرٌ عجيب، وقع فيه سادة، فرحم الله الجميع»[٥].

▫ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة أبي نعيم الأصبهاني في كتابه «سير أعلام

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٣/ ١٢٦٩) ترجمة ابن عبد البر في «السير» (١٨/ ١٥٣-١٦٣).

(٢) الحقد في الصدر.

(٣) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٦٣).

(٤) «السير» (٧/ ١٣٩- ١٤٩).

(٥) انظر: ترجمة البُوَيْطي في «السير» (١٢/ ٥٨- ٦١).

النبلاء»[١]: «وقد عُرِفَ وَهَنُ كلامِ الأقران المتنافسين بعضهم في بعض. نسأل الله السماح»[٢].

أقوال جميلة في الإنصاف:

□ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذل -أو الجذع- في عين نفسه»[٣].

□ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «انتهى عجبي إلى ثلاث: المرء يفر من القدر وهو لاقيه، ويبصر في عين أخيه القذى فيعيبه، ويكون في عينه الجذع فلا يعيبه، ويكون في دابته الصعر فيقومها بجهده ويكون فيه الصعر فلا يقوم نفسه»[٤].

□ وعن الحسن قال: «يا ابن آدم تبصر القذى في عين أخيك، وتدع الجذل معترضًا في عينك»[٥].

□ قال الإمام ابن حبان رحمه الله تعالى في «روضة العقلاء»: «الواجب

---

(١) «السير» (١٧/ ٤٥٣- ٤٦٤).
(٢) «نزهة الفضلاء» (٣/ ١٢٣٠).
(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٢)، وأحمد في «الزهد» (ص١٧٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٩٤)، وقد رُوِي مرفوعًا، والصواب وقفه على أبي هريرة.
(٤) أخرجه ابن عساكر (١٣/ ٥٣١) بإسناد حسن.
(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢١)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٨٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢٣)، و(١٤/ ٣٨)، وابن أبي الدنيا (٢٠٢) بإسناد صحيح والقذاة: هي ما يقع في العين والماء والشراب من نحوِ ترابٍ وتبن ووسخ «فيض القدير» (٦/ ٤٥٦). والجذل: قال أبو عبيد: الخشبة العالية

على العاقل لزوم السلام بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيهن وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمى قلبه وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم وأعجز منه من عابهم بما فيه، من عاب الناس عابوه»(١) اهـ.

□ قال محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظلمك لأخيك أن تذكر عنه أسوأ ما تعلم، وتكتمه خبره»(٢).

□ وقال الشعبي: «والله لو أصبتُ تِسْعًا وتسعين مرة، وأخطأت مُرّة لأعدُّوا عليَّ تلك الواحدة»(٣).

وكأن البشر مجبولون على عدم الإنصاف إلَّا من رحم الله.

□ قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي ناظرته يومًا في مسألةٍ، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا، وإن لم نتفق في مسألة»(٤).

□ قال الشافعي: «ما كابرني أحد على الحق ودافع إلَّا سقط من عيني ولا قبله إلَّا هبته، واعتقدت مودته»(٥).

---

(١) «روضة العقلاء» لابن حبان (ص١٢٥).

(٢) «الإنصاف» (ص٧٠).

(٣) «نزهة الفضلاء» (١/ ٣٩٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٦).

(٥) «السير» (١٠/ ٣٣)، و«توالي التأسيس» (ص٧٣).

▢ وقال أيضًا: «والله ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ»[١].

▢ وقال أيضًا: «ما ناظرت أحدًا إلَّا على النصيحة»[٢].

▢ وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه لعَدِيِّ بن زيدٍ العِبَادِيِّ -في الحوار الذي دار بينهما-: ما أنتم؟ أَعَرَبٌ فما تنقمون من العَرَب؟ أو عَجَم فما تَنْقِمون من الإنصاف والعدل؟ فقال له عدي: بل عَرَبٌ عاربةٌ وأُخرى متعرِّبة»[٣].

▢ وقال سفيان الثوري رحمه الله: «عِنْدَ ذِكْرِ الصالحين تنزِلُ الرحمة، ومَنْ لم يَحْفَظْ مِن أخبارِهم إلَّا ما بدر من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات والتعصُّب والشهوات دون أن يَعِيْ.. بفضائلهم حُرِم التوفيق ودخل في الغَيبة وحادَ عن الطريق»[٤].

▢ قال ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].. قال: «فَنَهى أَنْ يَحْمِلَ المؤمنين بغضهم للكُفَّارِ على ألَّا يعْدِلُوا، فكيف إذا كان البُغْضَ لفاسقٍ أو مُبتدع أو مُتأوِّلٍ من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألَّا يحمِلَهُ ذلك على ألَّا يَعْدِلَ على مؤمنٍ وإنْ كان ظالمًا له»[٥].

✍ وأخيرًا نختم بقاعدة الإنصاف عند أهل السنة والجماعة على وجه العموم:

---

(١) «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص٩٢- ٩٣).
(٢) المصدر السابق (ص٩٢).
(٣) «تاريخ الطبري» (٣/ ٣٦١).
(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٦٢).
(٥) «الاستقامة» (١/ ٣٨) تحقيق. د: محمد رشاد سالم.

□ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شفاء العليل»: «فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقوهم فيه، وهم براء من باطلهم، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه، ونفى باطل كل طائفة من الطوائف وكره ومعاداة أهله من هذا الوجه فهم حكام بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردون باطلًا بباطل، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم، ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بينَ الطوائف فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥] فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، لا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات»[1] اهـ.

أما منهج الفرق والطوائف المخالفة لمنهج الحق: فهو كما قال الشيخ عبد القاهر البغدادي في «الفرق بين الفرق»: «وليس فريق من فرق المخالفين إلَّا وفيهم تكفير بعضهم لبعض. وتبرى بعضهم من بعض كالخوارج، والروافض، والقدرية، حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضًا وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كفروا بعضهم بعضًا حتى قالت اليهود: ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ

(١) «شفاء العلل» (ص١١٤) لابن القيم.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾[(١)] [البقرة: ١١٣] اهـ. نعوذ بالله من الخذلان.

□ قال أبو الزِّنادِ بنِ سِرَاجٍ وغَيْرُهُ: «إِنَّ العَبْدَ إذا اتَّصفَ بالإنصاف لم يترك لمولاهُ حَقًّا إِلَّا أَدَّاهُ، ولم يترك شيئًا مما نهاهُ عنه إِلَّا اجْتَنَبَهُ، وهذا يجمعُ أركان الإيمان»[(٢)].

أمثلة عطرة على الإنصاف:

إنصاف الأحنف بن قيس:

□ قال الذهبي: «كان زيادٌ معظِّمًا للأحنف، فلمَّا وَلِّيَ بعده ابنه عبيدُ الله تغيَّر أمر الأحنف، وقُدِّمَ عليه من هو دونه، ثُمَّ وفد على معاوية في الأشراف، فقال لعبيد الله: أدخلهم عليَّ على قَدْرِ مراتبهم. فأَخَّر الأحنف، فلمَّا راه معاوية أكرمه لمكان سيادته، وقال: إليَّ يا ابا بحرٍ، وأجلسه معه وأعرض عنهم، فأخذوا في شكر عبيد الله بن زيادٍ، وسكت الأحنف، فقال له: لم لا تتكلَّمُ؟ قال: إنْ تكلَّمْتُ خالفتهم. قال: اشهدوا أَنِّي قد عزلت عبيد الله. فلمَّا خرجوا كان فيهم من يَرُومُ الإمارة. ثُمَّ أَتَوْا معاوية بعد ثلاثٍ، وذكر كُلُّ واحدٍ شخصًا، وتنازعوا، فقال معاوية: ما تقول يا أبا بحرٍ؟ قال: إنْ وَلَّيْتَ أحدًا من أهل بيتك لم تجد مثل عبيد الله. فقال: قد أعدتُهُ. قال: فخَلا معاويةُ بعبيد الله، وقال: كيف ضَيَّعْتَ مثل هذا الرَّجُل الذي عزلك وأعادك وهو ساكتٌ!؟.. فلمَّا رجع عُبيدُ الله جعل الأحنفَ

---

(١) «الفرق بين الفرق» (ص٢١٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٠٤) لعبد القاهر البغدادي.

صاحِبَ سِرِّه»[١].

إنصاف مسلم بن يسار لأبي قلابة الجرمي:

□ قال علي بن أبي حَمَلة: «قِدمَ علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: يا أبا عبد الله، لَوْ علِمَ الله أَنَّ بالعِرَاق من هو أفضل منك، لجاءَ نابه، فقال: كيف لو رأيتم عبد الله بن زيد أبا قلابة الجَرْمي. قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدِم علينا أبو قلابة»[٢].

رحم الله مسلم بن يسار فما يعرف الفضل لأهل الفضل إلَّا أولو الفضل.

إنصاف إسحاق بن راهوية لأبي عُبَيْد القاسم بن سلاَّم:

□ قال إمام وقته وحافظ عصره إسحاق بن راهوية عن أبي عبيد القاسم بن سلَّام صاحب التصانيف التي سارت بذكرها الرُّكبان: «الحقُّ يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام أفقه مني وأعلم مني»[٣].

□ رحم الله ابن راهوية ما أنصفه، قال أبو العبّاس ثَعلب: «لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل، لكان عَجبًا»[٤].

إنصاف الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ عن عبد الله بن محمد الورّاق قال: «كنتُ في مجلس أحمد بن حنبل،

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٣٤١- ٣٤٢).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٢١).

(٣) انظر ترجمته في «السير» (١٠/ ٤٩٠- ٥٠٩)، «نزهة الفضلاء» (٢/ ٧٧٥).

(٤) المصدر السابق



فقال: من أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخ صالح، فقلنا: إنه يطعَنُ عليك. قال: فأيُّ شيءٍ حيلتي، شيخٌ صالحٌ قد بُلِي بي»[١].

إنصاف أبي عبيد القاسم بن سلاّم لإسحاق الموصلي:

□ ذكر الذهبي في ترجمة أبي عبيد في «سير أعلام النبلاء» أن أبا عُبيد: «انصرف يومًا من الصلاة، فمرَّ بدار إسحاق المَوْصلي، فقالوا له: يا أبا عبيد، صاحب هذه الدار يقول: إن في كتابك «غريب المصنَّف» ألف حرف خطأ. فقال: كتابٌ فيه أكثر من مئة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير، ولعلّ إسحاق عنده رواية وعندنا رواية، فلم يعلم، فخطَّأَنا، والروايتان صواب، ولعلَّه أخطأ في حروف، وأخطأنا في حروف، فيبقى الخطأ يسيرًا»[٢].

إنصاف الحافظ ابن كثير لعالم شيعي:

□ انظر إلى إنصاف حافظ عصره الإمام ابن كثير لابن المطهر الحلي الرافضي عندما ترجم له..

قال في «البداية» (١٤/ ١٢٥): «أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحلي العراقي الشيعي شيخ الروافض بتلك النواحي»، ثم قال: «.. ابن المطهر الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض. ولكنه مع

---

(١) انظر ترجمة الإمام أحمد في «السير» (١/ ١٧٧- ٣٥٨)، و«نزهة الفضلاء» (٢/ ٨٣٥).

(٢) «السير» (١٠/ ٤٩٠- ٥٠٩)، «نزهة الفضلاء» (٢/ ٧٧٦).

ذلك لم يمنعه بغضه له لبدعته من أن يحكم على تصانيفه بالعدل فيحق ما فيها من حق ويبطل ما فيها من باطل. فقال: «وله كتاب منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة، خبط فيه المعقول والمنقول، ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة. وقد انتدب في الرد عليه الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية في مجلدات أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة، وهو كتاب حافل) وهو المسمى بـ«منهاج السنة». ولكن ابن كثير عندما كان لابن المظهر مصنف له فيه أشياء جيدة أثنى على منفه هذا مع ما يعلمه عنه وعن اعتقاده فقال: «ورأيت له مجلدين في أصول الفقه على طريقة المحصول والأحكام، فلا بأس بها فإنها مشتملة على نقل كثير وتوجيه جيد»[1]. هكذا يكون الإنصاف فأين هذا من متعالمة اليوم!!.

الإمام الذهبي إمام الجرح والتعديل رمز عالي للمنصفين، وحجة على الذين لا يفقهون فقه الخلاف ولا يروْن إلا أنفسهم:

□ الإمام الذهبي الجبل العالي، والحافظ الغالي إمام عظيم من أئمة الجرح والتعديل وزهرة فوّاحة العبير من بستان شيخ الإسلام ابن تيمية المصنف لخصومه وهو صاحب أدب رفيع في نقد الناس، وهو حجة على الذين لا يروْن إلا أنفسهم، وينظرون في ذنوب الناس كأنهم آلهة، ولهم حظ وافر من قسوة القلب تظهر في أقولهم، حصروا الخير فيهم وفيمن والاهم وكان من شيعتهم، ونظروا إلى المخالف أنه حَاطب ليلٍ وليس

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٢٥).

على هدى السلف وطريقة السلف، وزعموا السلفية حكْرٌ عليم وهم والله المتعالون.

وقفة نصح وبيان حق قبل الدخول في عالم الذهبي:

نقف وقفة من بعض طلبة العلم الذين يطعنون في بعض الدعاة والعلماء وهم والله ما علموا فقه الاختلاف، وأن منه اختلاف التنوع و«أنه من مقتضيات الرحمة ومظاهرها، وأنه لا بد من استثماره لتحقيق التكامل بين المسلمين، ولابد من أجل ذلك أن نتجنب ترك الواجبات العينية الأخرى، وتحقير العلوم والأعمال الصالحة التي تقوم بها الاتجاهات الإسلامية الأخرى، والتعصب على اسم أو عمل معين، بل لابد أن يكون الولاء على المنهج الإسلامي الصافي النقي، منهج أهل السنة بشموله وتوازنه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة][1].

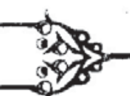
ومنه اختلاف التضاد..

ومنه الاختلاف السائغ غير المذموم، واختلاف غير سائغ مذموم، وأنه يشرع الإنكار في مسائل الخلاف غير السائغ.

---

(١) «فقه الخلاف بين المسلمين» للدكتور ياسر برهامي (ص٣٢)- ط دار الخلفاء الراشدين- الطبعة الأولى.

والموقف من العلماء الذين قالوا ببعض البدع أو بالأقوال الباطلة أن أهل السُّنَّة لا يختلفون في عدم ذم من اجتهد فأخطأ -كائنًا ما كان خطؤه- ممن هو معروف بالخير والصلاح ولهم في الأمة الذكر الجميل والثناء الحسن، ولا يستوي عندهم من قضى عمره في العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الحق ونصره السنة وأهلها وبذل النفوس والأوقات والأموال في سبيل الله، وتحمُّل المشاق في سبيل الله، لا يستوي هؤلاء ومن قضى عمره في الصدِّ عن سبيل الله ومحاربة السُّنَّة ونشر البدعة والانتداب لنصرة الباطل والتعصب الممقوت عليه كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم وبشر المريسي وغيلان القدري، فهؤلاء عُرِفوا بالبدعة وكونهم من رؤوسها ودُعاتها، ولم يكن لهم في العلم حظ ونصيب، بل ما حصَّلوا منه ما يؤهلهم لكونهم طُلَابه، لذا كان وقوعهم في البدعة من جرّاء تقصيرهم، ولَمَّا ناظرهم العلماء وبيَّنوا لهم الحق كان الإعراض من فِعلهم بسبب تَرَؤُّسهم بغير استحقاق، وتصدُّرهم بغير تأهيل، فكيف يستوون مع من كانت جلُّ أقوالهم مطابقة للحق؟ فنقول في حق هؤلاء العلماء: «إذا بَلَغَ الماءُ قُلَّتيْن لم يحمل الخَبَثَ، ولا يعني ذلك أن نصحح الأقوال الباطلة، أو نسكتَ عن البدع المخالفة للحق، بل كما قال الإمام ابن القيم في حقِّ شيخه الهروي: «وشيخ الإسلام حبيب إلى نفوسنا، ولكن الحق أحب إلينا منه»، فلابدَّ من النظرة المتوازنة التي ترى الحسنات والسيئات معًا، وتزن كل الأقوال بميزان الشريعة، وتزن أصحابها بما عندهم من



الخير والشَّر معًا»(١).

□ وقد سبق قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل السُّنَّة متَّفقون على أن المعروفين الخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصِفِّين من الجانبين لا يُفَسَّقَ أحدٌ منهم فضلًا عن أن يُكفَّر»(٢).

□ وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأيضًا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل واتفقوا على عدم التكفير بذلك مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف، وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعضٍ وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة، وكان القاضي شريح يُنكِر قراءة مَن قرأ ﴿بل عَجِبْتُ﴾ ويقول: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شُرَيْحا شاعرٌ يعجبه كلمه -أو علمه-، كان عبد الله أفقه منه وكان يقول: ﴿بل عَجِبتُ﴾ [الصافات: ١٢].

فهذا قد أنكرَ قراءة ثابتة وأنكر صفة دلَّ عليها الكتاب والسنَّة، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة.

وكذلك أنكر بعض السلف بعضَ حروف القرآن مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: إنما هي: ﴿أو لم يتيقن الذين آمنوا﴾، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ

---

(١) نعم: لله در الشيخ ياسر برهامي، فليس من قَصَد الحقَّ فأخطأه كمن تعمَّد قصد الباطل.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٤٩٥).

إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: إنما هي ﴿ووصىٰ ربك﴾، وبعضهم كان حذف المعوذتين، وآخر يكتب سور القنوت وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفِّروا وإن كان يُكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر»[1] اهـ.

فها هو شريح ينكر صفة من صفات الله ويجمع أهل العلم على إمامته، فلا يُبدع ولا يُفسق ولا يُكفر، وإنكار كتابة المعوذتين في المصحف مشهور عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولا خلاف في عدالة الصحابة أجمعين، ولا يجرؤ على اتهام مثل ابن مسعود وابن عباس بشيء إلَّا ضال مجرم رغم الجزم والقطع بخطأ القول المنسوب إليهم، بل قد يصل الأمر إلى ما هو أشد من ذلك فإنه من ينكر اليوم: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإنه يكفر لتواتر النقل بها في هذه الأعصار وصارت معلومة من الدين بالضرورة.

ومن هنا فإن موقفنا من العلماء أمثال النووي وابن حجر وغيرهما ممن قال بالتأويل هو موقفنا من ابن القيم في الانتصار للقول بفناء النار، وهو نفس الموقف من شيخ الإسلام ابن تيمية في القول بحوادث لا أول لها (عند من يفسرها بمخلوقات لا أول لها)، وهو نفس الموقف تجاه علماء السلف الأفاضل الذين وقعت منهم هذه الزلات: نعرف لهم فضلهم ومنزلتهم، ونترحم ونترضى عنهم للخير العظيم الذي اشتهروا به وعاشوا وماتوا عليه، ونعرف خطأ هذه الأقوال وبدعيتها دون أن يستلزم

---

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٢/ ٤٩٢- ٤٩٣).

ذلك تبديع المعين.

فالمسألة في حقهم لم تكن ظاهرة، فضلًا أن يكون متواترة أم معلوم من الدين بالضرورة، بل ظنوا أن لأهل السنة قولين رجحوا ما ظهر لهم ولم يطلعوا على النص أو الإجماع، وهذا الموقف هو الذي ندين لله به نحو العلماء المعاصرين الأفاضل الأجلاء الذين قالوا بأقوال ذكرناها ضمن الخلاف غير السائغ مما قد يستغربه البعض ويقول كيف لا يكون سائغًا وقد قال به فلان وفلان.

وقد بيَّنَّا من قبلُ أن الضابط هو مخالفة النص أو الإجماع، فإذا أثبتنا ذلك لم يكن لأحد أن يقول: كيف وفلان يخالف، ومع ذلك نعرف حرمة هؤلاء العلماء، وفضلهم، ولا نبيح لأحد أن يتجرأ عليهم أو يقدح فيهم كما يفعل بعض من لا يفقه ولا يعرف أدب أهل العلم في الاختلاف.

فعلى سبيل المثال لا يُعَدُّ عَدُّنا مسألة الذهب المحَلق خلافًا غير سائغٍ قدحًا في الشيخ الألباني، ولا مسألة إنكار العذر بعدم البلاغ في مسائل الأصول والعقائد.. خلافًا لأهل السنة قدحًا في بعض علماء الدعوة الوهابية، وغير ذلك من الأمثلة التي حين يصدر مثلها عن غيرهم ممن ليسوا من أهل العلم والالتزام بالسنة تجد منا الإنكار والتعنيف والتبديع مراعاة لما ذكرناه من طريقة أهل السنة التي سبق بيانها»[١].

من بستان الذهبي نقطف الأزاهير، ونتعلَّم الإنصاف:

إنصاف الذهبي لعلماء الإسلام وأعلام النبلاء وأدبه مضرب المثل

---

(١) «فقه الخلاف» (ص١٣٩ - ١٤٤).

وحجّة على من لم يلتزم أدب السلف في الإنصاف، والله إن كلماته وعباراته كفيلة بعودة من يريد الله والدار الآخرة ويلتزم هديْ السلف ومنهجهم حقيقةً لا إدعاءً.

وأقف بك وقفة طويلة فذكر إنصاف الذهبي يحتاج إلى مجلد كامل، وأحيلك على أماكن ذلك من كتابه الجميل «سير أعلام النبلاء» وتلخيصه «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»:

في ترجمة الأسود بن يزيد النخعي»[١].

□ عن الحكم أن الأسود كان يصوم الدهر -هذا صحيح عنه- وكأنّه لم يَبْلُغُه النَّهْي عن ذلك أو تأول»[٢].

□ في ترجمة «شهر بن حوشب»[٣] نعته بأنه من كبار علماء التابعين.

وعما قيل عن شهر أنه أخذ خريط من بيت المال فيها دراهم.

□ قال الذهبي: «إسنادها منقطع، ولعلَّها وقعت، وتاب منها، أو أخذها متأوِّلًا أن له في بيت مال المسلمين حقًّا، نسأل الله الصَّفح». ثم قال: قال يعقوب بن شيبة: شهر ثقة، طعن فيهم بعضهم، قال الذهبي: «الرجل غير مدفوع عن صِدق وعلم، والاحتجاج به مُتَرَجِّح»[٤].

□ وفي ترجمة أبي جعفر الباقر [٥] قال: «ولقد كان أبو جعفر إمامًا،

---

(١) «السير» (٤/ ٥٠- ٥٣).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٣٣٠).

(٣) «السير» (٤/ ٣٧٢- ٣٧٣).

(٤) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٠١).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٠١- ٤٠٩).

مجتهدًا تاليًا لكتابْ الله، كبير الشأن ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد، وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة ابن شهاب، فلا نُحابيه، ولا نحيفُ عليه. ونحبُّه في الله لما تجمَّع فيه من صفات الكمال.

□ قال ابن فضيل: «عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفرًا عن أبي بكر وعُمَر، فقالا لي: «يا سالمُ، تولَّهما وابرأ من عدوِّها، فإنهما كانا إمامَيْ هديً».

كان سالم فيه تشيُّع ظاهر، ومع هذا فيبُثُّ هذا القول الحقَّ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وكذلك ناقِلُها ابنُ فضيل، شيعي ثقة، فعثَّر الله شيعة زمَاننا ما أغرقَهم في الجهل والكذب، فينالون من الشَّيخَيْن وزيريْ المصطفى ﷺ ويحملون هذا القول من الباقر والصادق على التقية»[١].

□ وفي ترجمة مسلم بن يسار في «السير»[٢] نقل قول ابن عون: «لمَّا وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خفَّ مسلم فيها، وأبطأ الحسن فارتفع الحسن، واتَّضع مسلم».

□ قال الذهبي: «إنما يُعتبرَ ذلك في الآخرة، فقد يرتفعان معًا»[٣].

□ وقد مرّ بك إنصافه لقدوة المفسرين قتادة بعد أن قال عنه: «وكان يرى القدر»، قال بعدها مباشرة: «نسأل الله العفو. ومع هذا فما توقّف

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٠٩- ٤١٠).
(٢) «السير» (٤/ ٥١٠- ٥١٤).
(٣) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٣٥).

أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعلَّ الله يعذُرُ أمثاله ممن ممَّن تلبَّس ببدعة يُريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل، ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابه، وعُلَمِ تحرِّيه للحقِّ، واتَّسع علمه، وظهر ذكاؤه، عُرِف صلاحه وورعه واتباعه، يُغفر له زللـه، ولا زللـه ونطرحه، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك»[1].

وهذا والله كلام أرقُّ من نسيم الفجر، وأعطر من شذا الورود وأطيب من المسك.

◻ وانظر إلى إنصاف الذهبي لمالك إمام دار الهجرة في ترجمة ابن أبي ذئب في «السير»[2].

◻ قال الذهبي: «قال أحمد بن حنبل: بلغ ابن أبي ذئب أن مالكًا لم يأخذ بحديث: «**البيِّعان بالخِيار**»، فقال: يستتاب، فإن تاب وإلَّا ضُربت عنقُه. ثم قال أحمد: هو أورع وأقْوَل بالحق من مالك.

قلت: لو كانَ وَرِعًا كما ينبغي، لما قال هذا الكلام القبيح في حقِّ إمام عظيم. فما لك إنما لم يعمل بظاهر الحديث؛ لأنه رآه منسوخًا.

وقيل: عمل به وحَمَل قوله: «حتى يتفرَّقا» على التلفُّظ بالإيجاب والقَبول، فما لكٌ في هذا الحديث، وفي كُلِّ حديث له أجرٌ ولا بُدَّ، فإن أصاب، ازداد أجرًا آخر، وإنما يرى السيف عَلَى من أخطأ الحروريَّة[3].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٨٩)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩- ٢٨٣).

(٢) «السير» (٧/ ١٣٩- ١٤٩).

(٣) هم الخوارج: نسبتهم: إلى حروراء بالكوفة.



وبكل حال فكلامُ الأقران بعضهم في بعض لا يُعَوَّل على كثير منه، فلا نقصت جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب فيه، ولا ضَعَّف العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالِمَا المدينة في زمانهما رضي الله عنهما ولم يسندها الإمام أحمد فلعلَّها لم تَصِحّ»(١).

□ وفي ترجمة سفيان الثوري في «سير أعلام النبلاء»(٢) قال الذهبي: «قال ضمرة: سمعت مالكًا يقول: إنما كانت العراق تَجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بسفيان الثوري، وكان سفيان يقول: مالِكٌ ليس حفظ.

قلت: هذا يقوله سفيان لقوة حافظته بكثرة حديثه ورحلته إلى الآفاق، وأما مالك، فله إتقان وفقْه، لا يُدْرَك شأوه فيه، وله حفظ تام، فرضي الله عنهما»(٣).

إنصاف الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني، والذهبي لمالك:

□ قال الذهبي في ترجمة مالك (٤): «ابن الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال محمد: أيهما أعلمُ صاحبُنا أم صاحبكُم؟ يعني أبا حنيفة ومالكًا. قلتُ: على الإنصاف؟ قال: نعم. قلت: أنشدُكَ الله: مَن أعلمُ بالقرآن؟ قال: صاحبكم. قلت: مَنْ أعلمُ بالسُّنَّة؟ قال: صاحبكم. قلتُ: مَن أعلم بأقاويل الصحابة والمتقدِّمين؟ قال: صاحبكم. قلت: فلم يبق إلَّا القياس،

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٧٤).

(٢) «السير» (٧/ ٢٢٩- ٢٧٩).

(٣) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٨٧).

(٤) «السير» (٨/ ٤٨- ١٣٥).

والقياس لا يكون إلَّا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول، على أي شيء يقيس؟

قلت: وعلى الإنصاف، لو قال قائل: بل هُما سواء في علم الكتاب، والأول أعلم بالقياس، والثاني: أعلمُ بالسُّنَّة، وعنده علم جمٌّ من أقوال كثير من الصحابة، كما أن الأوّل أعلمُ بأقاويل عليٍّ، وابن مسعود وطائفة ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ، فرضي الله عن الإمامَيْن، فقد صِرْنا في وقت لا يَقْدِر الشخص على النُّطق بالإنصاف، نسألُ الله السلامة»[1].

إنصاف الذهبي لرابعة العدويّة:

□ ترجم لها الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[2] ووصفها بأنها «الزاهدة، العابدة، الخاشعة» ثم قال: قال أبو سعيد بن الأعرابي: أما رابعة، فقد حَمل الناس عنها حكمة كثيرة، وحكى عنها سفيان وشعبة وغيرهما ما يدلُّ على بُطلان ما قيل عنها، وقد تمثلته بهذا:

ولقد جعلتُك في الفؤاد مُحَدِّثي وأبحتُ جسمِي من أراد جلوسي

فنسبها بعضُهم إلى الحلول بنصف البيت، وإلى الإباحة بتمامه.

قلتُ: فهذا غُلوٌّ وجهل، ولعلَّ مَن نسبها إلى ذلك مُباحيٌّ حلولي ليحتج بها على كفره كاحتجاجهم بخبر: «كنتُ سمعَه الذي يسمع به»[3].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٦٢٤).

(٢) «السير» (٨/ ٢٤١- ٢٤٣).

(٣) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٦٣٥).

إنصاف الذهبي للفضيل بن عياض:

□ ترجم له الذهبي في كتابه القيم: «سير أعلام النبلاء»[1] ونعته بأنه «الإمام القدوة الثَّبْتُ، شيخ الإسلام أبو علي».

وفي ترجمه ابنه علي بن الفضيل، قال الذهبي عن الفُضَيْل: «وهو حجَّة كبير القدر، ولا عِبرة بما نقله أحمد بن أبي خَيْثمة، سمعتُ قُطبة ابن العلاء يقول: تركت حديث فُضَيْل بن عياض؛ لأنه روى أحاديث أزرى على عثمان بن عفان.

قلت: فلا نسمعُ قول قطبة، ليته اشتغل بحاله، فقد قال البخاري فيه نظر، وقال النسائي وغيره: ضعيف. وأيضًا فالرَّجل صاحب سُنَّة واتِّباع.

□ قال أحمد بن أبي خيثمة: «حدثنا عبد الصمد بن يزيد الصائغ، قال: ذُكِر عند الفضيْل -وأنا أسمعُ- الصحابة، فقال: اتَّبعُوا فقد كُفِيتم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

قلتُ: إذا كان مثل كبراء السابقين الأوَّلين قد تكلَّم فيهم الروافض والخوارج، ومثلُ الفضيل يُتكلَّم فيه، فمن الذي يسلمُ مِن ألسنة الناس، لكن إذا ثبتت إمامة الرجل وفضله، لم يَضُرَّه ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مفتَقِر إلى وزنٍ بالعدل والورع.

□ وأما قولُ ابن مهدي: «لم يكن بالحافظ، فمعناه: لم يكن في علم الحديث كهؤلاء الحُفَّاظ البحور، كشعبة، ومالك، وسفيان، وحمّاد، وابن المبارك ونظرائهم، لكنه ثبتٌ قيِّم بما نقل، ما أُخِذ عليه في حديث فيما

---

(١) «السير» (٨/ ٤٢١- ٤٤٢).

علمت. وهل يُرادُ من العلم إلَّا ما انتهى إليه الفضيل رحمة الله عليه»[١].

أمثلة كثيرة لإنصاف الذهبي لجمع من العلماء:

نذكر منها إنصافه لإسماعيل بن علية[٢]، ومحمد بن فضيل الضَّبِّي[٣].

-إنصاف الذهبي لعبد الرزاق الصنعاني[٤].

- إنصاف الذهبي للشافعي.

□ وذكر الذهبي في ترجمة الشافعي في «السير»[٥] أنه «قيل للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، كان يحيى وأبو عُبيد لا يرضيانه -يُشير إلى التشيُّع وأنهما نسباه إلى ذلك- فقال أحمد بن حنبل: ما ندري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلَّا خيرًا».

قلتُ: «من زعم أن الشافعي يتشيَّعُ، لا يدري ما يقول».

□ الربيع بن سليمان قال: «حججنا مع الشافعي، فما ارتقى شرفًا ولا هبط واديًا إلَّا وهو يبكي، وينشدُ:

يا راكبًا قِفْ بالمُحَصَّبِ مِن مِنـي ... واهتـف بقاعـدِ خَيفنـا والنَّـاهِضِ

سَحَرًا إذا فاض الحجيج إلى مِنـى ... فيضًا كمُلتَطِمِ الفُراتِ الفـائضِ

إن كـان رفـضًا حُـبُّ آلِ محمَّـدٍ ... فَليَـشْهَدِ الـثَّقلان أني رافـضي

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٦٦٩- ٦٧٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٩١، ٦٩٢).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٠٢، ٧٠٣).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٢٧، ٧٢٨).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥- ٩٩).

قلت: لو كان شيعيًّا -وحاشاه من ذلك- لما قال: «الخلفاء الراشدون خمسة، بدأ بالصِّدِّيق، وختم بعمر بن عبد العزيز»(١).

وللخبر تتمّة في غاية النفاسة عند البيهقي، وهي: «ثم قال أحمد لمن حوله: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم وحُرِمَه قرناؤه وأشكالُه، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم».

- إنصاف الذهبي لزكريا بن عدي(٢).
- إنصاف الذهبي لعلي بن الجعد(٣).
- إنصاف الذهبي لأبي نصر التَّمَّار(٤).

إنصاف الذهبي ليحيى بن معين:

شدَّدَ الذهبي النَّكير على العقيلي لإيراده علي بن المديني في كتابه الضعفاء، فقال في «ميزان الاعتدال»(٥): «وقد بدت منه هفوة ثم تاب منها، وهذا أبو عبد الله البخاري -وناهيك به- قد شحن صحيحه بحديث علي بن المديني، ولو تركت حديث علي وصاحبه محمد، وشيخه عبد الرزاق وعثمان بن أبي شيبة.. لغلقنا الباب وانقطع الخطاب، ولماتت الآثار، واستولت الزنادقة، ولخرج الدجّال. أفما لك عقل يا عقيلي؟!

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٧٣٨- ٧٣٩).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٧٠).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٧٢).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٨٢).
(٥) «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٠، ١٤١).

أتدري فيمن تتكلم؟ وإنما اتبعناك في ذكر هذا النَّمَط لنذُبَّ عنهم، ولنُزَيِّف ما قيل فيهم.. كأنك لا تدري أن كل واحدٍ من هؤلاء أوثق منك بطبقات، بل وأوثق من ثقاتٍ كثيرين لم تُوردهم في كتابك، فهذا مما لا يرتاب فيه محدث».

□ وفي ترجمته ليحيى بن معين في «السير» ذكر الذهبي قول أبي زرعة الرازي: «كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عن أبي نصر التَّمار، ولا عن يحيى بن معين، ولا عن أحد مم امتُحِن فأجاب».

□ قال الذهبي: «هذا أمر ضيِّق، ولا حرج على من أجاب في المحنة، بل ولا على من أُكرِه على صريح الكفر عملًا بالآية».

وهذا هو الحق. وكان يحيى رَحِمَهُ اللَّهُ من أئمة السُّنَّة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب تقية»[1].

- إنصاف الذهبي لشعبة[2].

إنصاف الذهبي لأحمد بن أبي دُوَاد:

وصفه الذهبي في «السير» بأنه «القاضي الكبير.. الجهمي، عدو أحمد ابن حنبل. كان داعية إلى خلق القرآن، وله كرم وسخاء وأدب وافر ومكارم.. ولم يُضَف إلى كرمه كرمه.. وقد كان ابن أبي دؤاد يوم المحنة إِلْبًا على الإمام أحمد، يقول: يا أمير المؤمنين، اقتله، فهو ضَالٌّ مُضِلّ»[3]،

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٧٩٩- ٨٠٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٠٢).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٨٠٨، ٨٠٩).

ويكفي هذا لترى مدى إنصاف أهل السُّنَّة الذي بلغ الذروة عند الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فهو يذكر بعض محاسن الرجل وقد كان رأس الضلالة وسبب محنة أهل السنة.

إنصاف الذهبي لابن كُلاّب:

□ ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء»(١)، ونعته بأنه «رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه.. صاحب التصانيف في الرَّدِّ على المعتزلة، وربما وافقهم.. وكان يرد على الجهمية.

□ وقال بعض من لا يعلم: «إنه ابتدع ما ابتدعه ليَدُسَّ دين النصارى في مِلَّتنا، وأنه أرضى أخته بذلك، وهذا باطل، والرجل أقرب المتكلمين إلى السُّنَّة، بل هو في مناظريهم»(٢).

✍ ثم انظر:

إنصاف الذهبي لأحمد بن أبي الحواري:

□ ذكره الذهبي في ترجمته في «السير»(٣) بأنه «الإمام الحافظ القدوة، شيخ أهل الشام الزاهد، أحد الأعلام.

□ قال الذهبي: «قال أحمد السُّلمي في «محن الصوفية» أحمدُ بن أبي الحواري شهد عليه قوم أنه يُفضِّل الأولياء على الأنبياء، وبذلوا الخطوط عليه».

قلتُ: إن صَحَّت الحكاية فهذا من كذبهم على أحمد، وهو كان أعلم

---

(١) «السير» (١١/ ١٧٤- ١٧٦).

(٢) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٨١٠).

(٣) «السير» (١٢/ ٨٥- ٩٤).

بالله من أن يقول ذلك»[١].

- إنصاف الذهبي للزبير بن بكّار [٢].
- إنصافه للبخاري [٣].
- إنصاف الذهبي لداود الظاهري [٤].
- إنصافه لابن أبي داود [٥].
- إنصافه لابن قتيبة [٦].
- إنصافه لمحمد بن نصر المروزي [٧].
- إنصافه لشيخ المفسِّرين محمد بن جرير الطبري [٨].

إنصافه لإمام الأئمة ابن خزْيمة [٩]:

□ ذكر في «السير»[١٠] ووصفه بأنه «الحافظ الحجة الفقية، شيخ الإسلام إمام الأئمة.. صاحب التصانيف». ثم قال بعد ذلك:

«ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب لعلمه ودينه واتباعه للسنة. وكتابه في «التوحيد» مجلد كبير، وقد تأوَّل في ذلك حديث

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٨٧٦).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٩٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٩٠٧).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٩٤٦- ٩٤٨).
(٥) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٦٩١- ٦٩٢).
(٦) المصدر السابق (٢/ ٩٧٦).
(٧) المصدر السابق (٢/ ١٠١٥).
(٨) المصدر السابق (٢/ ١٠٤٠).
(٩) المصدر السابق (٢/ ١٠٥٠)
(١٠) «السير» (١/ ٣٦٥- ٣٨٢).

الصورة. فليعُذَر من تأوَّل بعض الصفات، وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفُّوا، وفوَّضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كُلَّ من اخطأ في اجتهاده، مع صحَّة إيمانِهِ، وتدخِّيه لاتباع الحق- أهدرناه وبدَّعناه، لقلَّ من يَسْلمَ من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمَنِّه وكَرَمِه»[١].

- إنصاف الذهبي لابن حبان[٢].
- إنصاف الذهبي للقفّال الشاشي[٣].
- إنصافه لابن بطّة[٤]، وإنصافه لعبد الغني بن سعيد الأزدي[٥].
- إنصافه للأهوازي[٦]، وللخطيب البغدادي[٧]، وللحيري[٨].

إنصافه لأبي حامد الغزالي:

▫ قال عنه في ترجمته في «السير»[٩] الغزالي إمامٌ كبير، وما من شرط العالم أنه لا يُخطئ».

ثم أردف ذلك بتشنيع الطُّرطوشي له وذمُّه إياه وقوله عن الغزالي: «لقد كان أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء» عَمَد يتكلَّمُ في علوم

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ١٠٥٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٥٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١١٧٨).
(٤) المصدر السابق (٣/ ١١٩٧، ١١٩٨).
(٥) المصدر السابق (٣/ ١٢٢٠، ١٢٢١).
(٦) المصدر السابق (٣/ ١٢٥٥).
(٧) المصدر السابق (٣/ ١٢٩٠).
(٨) المصدر السابق (٣/ ١٣١٣).
(٩) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٢٢- ٣٤٦).

الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيسٍ بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات».

قلت: «أما «الإحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية»[(١)].

□ وكان الذهبي قد نعت الغزالي في صدر ترجمته له بأنه الشيخ الإمام البحر، حُجَّة الإسلام، أعجوبة الزمان»[(٢)].

□ وقال في آخر ترجمته: «رحم الله أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»[(٣)].

□ إنصاف الذهبي لمحمد بن طاهر القيسراني[(٤)]، ولابن أبي كُدَيَّة[(٥)] القيرواني، وللقاضي أبي بكر بن العربي[(٦)]، وابن عبد البر، وابن الجوزي[(٧)]، وابن الأثير[(٨)]، والكندي شيخ القراءات[(٩)].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٣/ ١٣٥٨، ١٣٥٩).

(٢) «السير» (١٩/ ٣٢٢).

(٣) «السير» (١٩/ ٣٤٦).

(٤) «نزهة الفضلاء» (٣/ ١٣٦٢).

(٥) المصدر السابق (٣/ ١٣٦٩).

(٦) المصدر السابق (٣/ ١٤١٣).

(٧) المصدر السابق (١٣/ ١٥٠٧).

(٨) المصدر نفسه» (٣/ ١٥٢٤).

(٩) المصدر نفسه (٣/ ١٥٣٢).

▫ ونختم بما قال الذهبي: «الإنصاف عزيز»[١].

✍ ونختم بإنصاف أئمة الجرح التعديل، وتجردهم حتى أنهم نقدوا ألصق الناس بهم. وأنصفوا دين الله والعلم من ذويهم وأحبُّ الناس إليهم.

▫ قال الإمام السخاوي في «فتح المغيث»[٢]: «فعدلوا وجرحوا، ووهنوا وصححوا، ولم يحابوا أبا ولا ابنا، ولا أخًا»، بل ولا أنفسهم. وإليك الأمثلة على ذلك:

(أ) سئل علي بن المديني عن أبيه -عبد الله بن جعفر بن نجيح- فقال: أسألوا غيري. فقالوا: سألناك. فأطرق ثم رفع رأسه. وقال: هذا هو الدين، أبي: ضعيف»[٣]. «المجروحين لابن حبان».

(ب) قول زيد بن أبي أنيسة: لا تأخذوا عن أخي -يعني يحيى بن أبي أنيسة- كما في «مقدمة صحيح مسلم»[٤].

▫ قول الذهبي في ابنه أبي هريرة عبد الرحمن: «إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه»[٥].

▫ وقوله في أبي علي الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي بعد أن حكى فيه اتهام ابن عساكر وغيره له: «لو حابيتُ أحدًا لحابيت أبا علي

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ١٤١٤).

(٢) «فتح المغيث» (٣/ ٣٢٢).

(٣) «المجروحين» لابن حبان (٢/ ١٥).

(٤) «مقدمة صحيح مسلم» (ص٢٧).

(٥) «فتح المغيث» للسخاوي (٣/ ٣٢٢).

لمكان علو روايتي في القراءات عنه»(١).

أخي: اتق الله يا أخي، واذكر محاسن المسلمين وما عليهم، فذا هو الإنصاف، وأذكرك بقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

فحذار من البغي وعدم الإنصاف.

هاهنا تُسكب العبرات أن ينصف كافر مسلم، ولا ينصف المسلم أخيه.

أذكرك بأن أبا سفيان قد اعترف بالحق، ولم يكذب على النبي ﷺ لما قاله له هرقل وسأله: «هل كنتم تتَّهمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلتُ: لا»(٢)، وكان أبو سفيان في ذلك الوقت رأس المشركين وزعيم الكافرين.

□ وقول ابن الدغنة سيد القارة -وهو على الكفر لأبي بكر رضي الله عنه: «مثلك يا أبا بكر لا يخرجُ ولا يُخرَج، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك»(٣).

✍ فما أحوجنا لمثل إنصاف ابن الدغنة!!! آه ثم آهٍ ثم آه.

---

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٥١٣).

(٢) «فتح الباري» (٧) (١/ ٣٥).

(٣) رواه البخاري (٢٢٩٧)، (٣٩٠٥).